كُبُوّ obscurcissement

رقم الإيداع القانوني

2439- 2010

ردمك 4-87

978.9947.904

دار أطفالنا للنشر والتوزيع

المؤلفة: إزدهار بوشاقور

يُقال إبليس طفل أو صبي فقلت فهل معنى هذا أن للكبر في تغييره أو للدخيل يد في تغييره، وقيل المرأة أكبر من الشيطان فقلت فهل لها بإنهاء أمره.

وقيل شيطان الإنس أخطر مِنه عند الجن وشيطان المسلم المؤمن ضعيف فقلتُ هلْ من شك مِن أنَّ الشذوذ عن الطاعة والمَعصية مبدء للشيطنة وركوب الجن وإن كان على السواء كافر ومسلم.

ولكن لا مَن يشذُّ عنِ القاعدة فالشيطان أمره أمر والسحر طريق له ومَبيتهُ جَسد الإنسان فهلْ لنا بفكِ لفة الذيل على الرقاب فخلف اليد يد وللروح روح نفخ فيها فلان وفلان فحصَّن أولاده عن أولاد الشيطان أو دفعهم لعبة إليه وإن كانت بسم الله تطرد الشيطان فإنَّ مسلك العرافين والمباغتين أحسنوا إليه الطريق.

إني مِمَن يحبون صيانة الحقوق وأحاديث تأخذ في المعنى وأُجيد إستنساخ من يحبون الإحترام.

غير أنِّي مُتمسك بقوتَّي في قولي، الضعيف وراء السحر والسحر وراءه فالسوسة لا تدخل في العروق ولا تفيض بالجوارح ولا تتلحَّن على الألسن فتنام على لحنه الجفون وتطوى عليه الرموش إذ لم يكن لذكاء الغبن قوة مساعدة له، وأخرى من قوة الاعتقاد به.

لا أريد التلطُّف أو التعطف، ولا الوقوف على صلابة التخلُّق ولا الدوام في عثر المطب، مهما كانت قوة الصلة الداخلية بالإيمان، بعيدة عن تقمص الأدوار أو التمرد في الحالات ولكن وضع جسدي المستلقي يحاصره الجو الجاف الخانق والملمُّ بالهزيمة والانهزام، مال بي إلى حياة أخرى ولاحت دنيا بوجهي وأمام عيناي، دنيا رسمت في خيالي تؤشر لبيانات بما قوي هذا الزمن. (الراوي يتحدث)

عالم غيبي وعالم آخر أستطيع الحديث فيه وإن لم يكن فإنَّه بإمكاني القضاء فيه والإفضاء إلى وجه بعيد عليه، لكن ليس طريقا قبيحا وليس بالحسن بل بداخلي طرح لِما بداخله ورؤى شاخت خلاياها رويدا رويدا حتى رافقها تكاثر للظنون والشكوك تكاملت في الظلام، حتى غاب ما اتضح فكان اللاحلْ من نسخ الكلمات وتسهَّل طرح الحروف لنمنح قراءة جليَّه لِما هلَّ في نفوسنا من غيبيات.

وفي صفير الريح وصُنع النوى، وطفح الرياء والتحامل صبغ الغموض وامتدت بالأشياء إلى اللاشيء.

بالإنسان هوامش وفجوة ما بين التصديق وضِده وما بداخله من شر يتضح المقصد في قيامه وتجتمع الحاجة وتبيتُ النيَّة إلى قلب الموازيين، فكانت الغيبيات تجربة جديَّة ومنظار وعوالم مقصديَّة لمعرفة ما جُهِل. وقراءة التاريخ القادم على الكف، وأعْطيَ الدور فيها للمرأة، وإتَّسع ما ضاق ، وكُسِي الضعيف بالبطلة، وطاردت النفوس أحلامًا تُفتِح البخت....

....

هُدِم المنزل الذي كان يأوي عائلته وتُرك وحيدا بجسد عريض ووقفة خلَّفت ظلِا عارضي الأشعة، وأقترنَ حاجباه سيرا ليواجه بعيون عنت بعيد المألوف ووصل تقديره إلى معاتِق عريضة صلبة العظم عانت الكثير من الخصوم.

مَهيب الملامح أسمر تخزَّن لون الشمس وصبغة القمحة زمن اكتمال نُموها ثائر في مِشيَتِه ما بقي له غير سروال أسود يلبسه وقميص بلون تراب الأرض حينما تُبلله حبات المطر وتدوسه الأقدام.

يتعمق أثره ويصل حد تقدير العثر.

هام في الصَوت الشاكَ ونَسج بفُرادة ما بقى عليه وفيه . قُضي والداه وزوجُه وإبنه وحَكم الحال أذناب البقاء حصد الزمن حقلاً زرع عائلته وإنبعث من المكان روائح الخلاء، لم يُعارض الألم ولا ثائر على الموت ، لم يزيّف للدنيا من حقِها وإن كانت الفريق الرابح والخبرة أضلَّت فيه القول ، فكانت المنبع المُدعي للذهول وكلُّ طُموحه وقدرته وله رصيد أحاسيس يغترف منه ، ووثبٌ وإن كان شاق فإنَّه ماض لا ينظر.

لن يمضي العهد على إنهاء عهده وإن دام تستُر الثعبان وإن زاره الحمام الخفَّاق الجناح أو الغراب الأسود النوَّاح فالإتفاق لا يتفق وزمن أحد وإن كان الإدِّعاء حُرُّ التجرؤ في الحريَّة التي هي موطن الأقدام.

ضَخم الجثة من الجبال علوه وشموخه ومن الأسد فراسته ، من النسيم وعبق الورود حلاوة حديثه إعترافات مُرتبكة مرتجَّة عن سُمعة تناثرت في حَقه ، وهاهي الوحدة مرتعه الوخيم وتنَكر له الزمن فقد جرفته الظروف وتقاذفته أمواج من مختلف الأحجام إلى غمار بؤر الإنعطاف والتسلل مع المدِّ، قَبَضت يُمناه الهواء وذاق مرارة وِحدة الضمير، واحتكم الفرس في مَربضه.

هو ذا مشروع الأيام القادمة ، وهاهو يتخرج فؤاده العديد من الهواجس وثورة لحواسه الخمسة، باعته الأرض وتسللت إلى كل مرتبه.

إرتدى برودة وإفتك البسمة وتحركت حدقته تحت جَفن مُغلق وقلَّب فكره ظَهر المحن...

عاداه من حوله وهو يمحو مجموعة الصور الجميلة .تحبب للزمن وتحنن، خطب رأفة الليل.

وإن كانت أزالت الأرض أناس، فلن أرحل عن وطني وإن شحَّ القدر فسأنتظر من السماء المطر.

قاده قطيع الأحلام، وتحضَّر كل ما عاش في دروب جميلة لم تغب عنه لحظات وقوع البيت وإنحناء البنايات عن نشاط من الأرض، هو ذا حالة وعي الإنسان خوف التراب وما تحمله الحياة لمن ركب ظهرها، لقد غيَّبَهم الزلزال العنيف .

إنطبعت بروحه الذكرى وكتب الزمن هذه الكتابة تجوَّف صدره من إحساس الرأفة، وجهد فكره مجموعة مُقاربات تجمهرت بجوهرة القلب.

أيقظ العملاق بداخله فَقد سُلطانه وتفقد الحب بصدره فأجابته صورته بالماء، لا تلبس غير حقيقتك ولا تحمل إلاَّ مَا بك من أحاسيس لا الغي ولا الضلال ولا أباريح التشكيك تقتص لك كيان في حديث للروح، وشرود مُوحي مفعول الشهوة وأوحى له العجز بفقر العمل وامتعض الصدر من وعكة الألم ثائرًا وهادئًا،استشعر الكلمات على تنهدات عجراء وتصرف الحال علو التصرف.

الحب يحرك الشعور ويخطب كبد المَعزَّة نسيج منيع أباح أحاسيس تقدمت في خفة تلبس للروح لوحة ونغم منغم عزم التآليف، ومع نجم اسمه حُلَّة النفس أدبر الضلال وقفشعره بنقلة فجائية ترسوا على الصدور في روحانية ، ويحتضن جرف الهوى والوجدان.

والحب يُخزّن العواطف وولّد الشعور الجميل ، الحُبُ فك الأصفاد وبهاء بحِياده.

تمزقت صورة الحياة أمام العيون وعلى آذان صلاة العصر، وسَارع المُصلي (وحيد)سحب أذياله وتعدلت الظلمة وتعَّند عليها الضوء لكن الزمن شعر بالدخيل، وصورة الشمس وضياؤها ظاهر المعنى ، أفق أصفر فاتح جنح على السكون يحمل قلب حي ومهابة، قَويُ العظمِ واثق الخطى تصرَّف بعزم وحمل صدره ما وطأت أيامه.

تجوَّف الظل نور الشمس و نقل الضوء خافت ظلةً ، يسير إلى طريق الدنيا. تزور الأرض قطرات المطر وتتطاير هندامه بريح ماشية ، دبَّت برودة به وصوت الأفكار يخترق داخله ويبدد التحف القصصيَّة به.

فروق الأحلام ودخان الآمال ينتثر مراسيل مراسلة تبحث عن الوجود.

ماذا عن غرس الأيام الفائتة، ماذا عن حياة ما قبل أيام وماذا عن تواريخ مراحل الإنسان أين الطفولة والشباب وحلم الكهولة، تتوزع الأفكار شاهدة على وجوده وحضوره بلا مكان

تلبست نظراته عقودا أربعة وانثنت مَلامحه تعد شموع العمر. الوصول إلى صفاء سنة ليست بعيدة فكانت الدنيا توصله إلى رفع الظلمة والعودة به إلى مولده.

الزلزال أتى على دهاليز البيت وأذاب الساكن وجدَّد الهواجس، ليس مِمَن يَسعون إلى أقرب القريب ولا ذو ألفة وإتلاف، لم تر عيونه أخواله الثلاثة ولم يجلس إلى خالاته الثلاثة مرة في عمره، ليس لأنَّه فاقد للشعور ولا حامل لفصيلة دم فريدة ولا لأنَّه مُنتفع أو ثائر على العواطف ولكنَّها القناعات وغلبة لون فاقد الروح، هالت العواطف لم تعرِّج ذات يوم عليهم ولو بالتشكيك بل لأن الأم تجوفت أصغر الإخوة بهاء العلاقة، فغابت عن الأقارب وتغيبها الأقارب بجدية لا بحميميَّة فكانت أنْ سُلبت أرضها وترست موانئ الوحدة لا بَّر في علاقة شحيحة، القريب ابتعد والبعيد غاب عن المكان فكان ما كان.

وجفا الوالد وكان له من حظ الزوجة كل الحظ، ولم يكن من التخزين للعلاقة الأسرية ما هو ظاهر، تمزق الوعي واستطاعت الحياة التحكُّم في ابتعاد الجذوع عن الغصون وتساقطت الأوراق دونما أن تطرح الشجرة مَردودا بل اكتفت بمدِّ الجذوع وطرح الضعف والجذب ليَجني اللسان حبات سوداء إسمها الكراهية.

أباد الزمن النفوس واستطاع استنزاف الأفكار التي لا تحدُّها فطرة.

استطاعت مؤثرات النفس إفعال الكثير من التغيير، وتوارث ما ظهر على ملامحه، وجود التعصب وسحق أو نشر من مزايا تعلمه على الزمن وعلَّمَه كيف يجرح الصدر وكيف يقرع على السمع، كيف يتآمر عليه العالم فيُصبح أكثر برودة، أرَته العيون كيف تتمدَّد أوصال الشتاء قبل الأوان وحُمِل من مكان آخر دون اكتشاف للتفاصيل.

وسَار "وحيدا" على الأرض المَعبرة وأرجل مُكبلة مثقلة متفجر مابه ، وتفتح ثغر الهوان ذاهبا إلى جهلٍ ، ودخل المقبرة من مدخلها الشرقي يبحث عن مكان يأويه .

كثر الهجر وبان وكرُ المآسي والضجر، في الصَمت أين الموات فرَّ الفجر، وتفرَّغ ما في الغلبة كثير من حروب واللايقين ضاخم الظن، ودخل نفق على مَشاهد القهر تعارضت المواقف وتزيَّف الحال فما كان من وهن ونسيج الوهم شاك خيوط الخصومة فما خطا خطوة إلاَّ و فكره طارت به الأفكار وترسَّم ما استهوى وجحظ عيونه وِلادة أحلامٍ تغوص به في بِرك تقصُّ عليه وفي خيال وبين خُبث وهمَّة يحضره الوجود، يفتك من التفرد

والوحدة والطريق المَهجور السابح في الخلاء ما وراء التفكُّر زارته ضِفاف الحلول وروى باله بعض الناس المهمين بالزيارة ، وتوزع على بعض الصحاب لكن...

أعدم الوزن، وترفع مَوجة تحمل البرودة، موجة تتناوب المد ... ولكنَّه خفيف خِفة الطفل ومورد به ربيع العمر يُشرف على العقد الرابع، وينبوع قلبه لا يزال في العقد الثاني ولا يزال على العهد.

شجرة على ثمارها وزهرها، ووجه يرسم نفسة على حالته النفسية، في أنموذجه الباطني.

تذكرها هي العشيقة والقلب الذي يكنُّ ويحمل له الود عاشقة له وهائم بها.

لا تفكير عليه ولا ما يحمل له رجحان ومرتبة للرشد، توزعت الأقاويل وإلحاح المعطيات، الكثير منها يلحُّ زيارة " ليلى " القصيدة التي نغمَّت حياته وتسطرَّت بصفحات كتابه أفكار تخص محطة ما مِن حياته، بل "ليلى "هي الفتاة الوحيدة التي أحبها لكنها ماتت مريضة .

إنقلبت ملامحه وتعصَّر العيون، أخذت الجفون تصنع الأسى وتضَالع القلب ونثرت على الخدود حبات سوداء ليلية جرت خلفها سحابة مُقيَّدة للنظر وقد أعادت للناظر السؤال.

هناك عاجل ألف بالشاب وأذاب به خواطر لا تُسمع بل تسمع الحواس رسائل تزول النغم إذ حلَّق نور القمر أضاع الضياء الظلمة، ماذا إذا زاولته الظلمة وتلاحقت الشعاعات تنشر ما بين الأصابع من غلفة ؟ .

معابر للحياة وجسور تشدُّ وتربط الضفاف، ومحت الشمس لون الوجه فبانت السُمورة وأثر النور وتدافعت في حماس بقع تقبع على و حَول العيون، تشاهق أنفه وعلت مرافئ في تجاهل وبهرجة ظاهرة لا إرساء لها إلاَّ التغيب.

لا سلطان على الظلام ولا بريق على الضوء، وخطوة خطوة على طريق مُتمدد ترابي لا حدود ولا رصيف إلاَّ أصوات فُتَات وبقايا تصلُّب مِمَّا تركته الآلة لا إسم له ولا باع، طريق تلفه زوبعة غبار كلما نفخت الأسماء، يتفاءل حينا و يغوص في التطيُّر حينا آخر، واتبع السير الأنسب .. ونسي ما خَلفْ يريد مكان الموتى مُتقصِدا المقبرة .

مُشحن أحاسيس وأوهام، مُثقل متخَّم جُروح بدون رؤى، ونظرة في عيون الخلاء والضياع من حوله، البعيد صغير والقريب حجز ما بقى أكثر إثارة.

زف وحيدا وتوسع توجعه مجروف إنثنى من الأنام والألم يعزف الناي على جلده.

إغترب واقترب من حدود الوادي... لم يأت من قبل .. لكنَّه يتذكر ذاك الزمن، وإن كان بعيد فقد تذكر ذاك المساء لما عان بداخله ونام وعيه على وجه أبيه يحنو إليه ماسكا يمناه، يختار له ممر السير ويتحدث إليه.

لكنَّه عاد من غيابه وتمسَّح عيونه .. لقد مات شهيدا ...

و خطى خطوات في الهوى ...و مشاعر أسرار العذاب تتدفَّق على خدوده ،و هواء مَنحى خطابات تكسَّرت في المقامات و دون أن يُدِر رأسه طوَّح به السير إلى نهاية مُقلقة و تفتح على إحتمالات مُهلكة .المكان يأخذه إلى المقبرة و إلى الرداءة بدون مراهنة .

مَدَّ به شعور مُحافظ و تعثر رأيه و سيره على تراب المقبرة ...قلبه على المكان ، مال على القبور و شجيرات ترفعت هنا و أعشاب من هناك قلبه يحمل إزدحام شعور و أحاسيس تهزه من بعيد، وجهته إلى المَجهول وقلبه يتقبَّل كل المكنون.

ومن ابتداء كان فكرة إستيقضت هواجسه وأفاقت النغم المغيَّب بداخله .و تلبس الحال رداءًا أشهبًا .

و أفاق هواء بارد و إشعاع مُسحَّر ، حمل موج غاص به في العمق . و على عمق خطوات إنحصر به ما ضُبط و أفاض بدون مُراهنة و إعتلى جفاء أعصابه .و تسحب أميالا في الأمان .و تخفَّت عُيونه خلف النظر و تتابعت قاطرة الصُوَّر الغامضة .تنهمر و تتمرَّر مُسرعة بفكره و بين ما اندثر و آخر تخطَّط .تغيرت قسماته عن الحقيقة و تعيَّش حالة مازالت جزءا بعيدًا شعوره .

به دفع و أخذٌ إلى مصير يُغيُّر مَجرى ما تجمَّع به من بَرد و تحوَّلت عيونه. في فسح تأخذ إلى بعيد ، و المكان تحت سُلطة الغفلة تتسابق إليه الوحشة في تزايد مُورث لتحجر المشاعرالمطنبة في الخشيَّة ، و حيا بمتغيرات و بدعوة و حاجة و بدون مُدعات.

شاب بدون أي بُعدٍ ثقافي لا مُؤهل ولا مَا يحفظ وجوده الاجتماعي (هكذا كان يقول عن نفسة) لكنْ له صداقة و أكثر من صديق له أهل و أكثر من الواحد، لا ينحصر بل مُنطلق. جرفته جحافل الأفكار إلى المكان ، واقتحم اللاوجود حوله ... المَقبرة تعني له الكثير في فكره.

وإن تجرد من التوثيق وتطرف عن التنوير، وتخرج فكره الصوَّر ونبض القلب رفع الشدَّة، لأنَّ ظرف القول كان بين خطر ووعد.

وخطَّت مَحارم الذهن ونَمى بِبَدنه ما أغنى استقصاء المقصود وزحفت العنكبوت مسافات زمنية بعيدة بالنفس لا رسم ولا شكل لها وتجاذبته قوى مجهولة من غبن وبراغيث البغضاء ... صعب إدراك الغائب وصعب اقتحام الظرف الطارئ وراح الخيال يُبدع وقام الخلاء والوحشة بتغذية الوافد ، التسليم والإباح ، والإلهام بلا رشد.

جلس الشاب على أقرب صخرة تخرَّجتها الأرض ، جامع أشلاؤه فاسحا للمتعة التي غزت بَدنه .

وفي جو غزته برودة وترفَّعت عبارات تُسمع الأذان وتُتبُع النظر طريًا تعوَّد على ما كان ونشأ به ما ينشأ للفتيان المراهقين حطت به نقاط على مَتاهات الكلمات وبشكل جِدِي تصارح الضمير و الروح. حتى وقع في أسر المَجهول ، وفكَّر بِحجم الوجود، وتحت سحابة رمادية وحمراء جلس كما الطفل، مجازف إلى مجاري لا بوادر راسية مُطمئنة إلاَّ جحافل لا رؤى لها ، ومجاز أكل دخيل وتصفَّح ما جمع بجناحيه في إجتماع لرؤى و تقصَّد المَقصد..

وبدا الغياب يَدب في صُورته و لحظة فلحظة أنسته الظلمة مراسم وجوده فلا يتفقد جسمه إلاَّ بتنهدات مُتقاربة . تحسَّس سُترته فتفطَّن لوجود علبة السيجارة ، إستجمع جيبه الأيمن و أخذ منه علبة الكبريت .

أخذ سيجارة و حصرها بين شفاهه أحسَّ بدفء يَدرُ الألم وتراقصت خيوط الدخان على عزف ناي حزين واختبأ بقلبه ما يخفي الأسقام.

يمضي الليل بِصوَره ، مُنحنيا أمام النجوم وبين ما ينشده وما ينمِّقه ، وبين ما يجرفه ويتقدم به سنوات في العمر يُداري المستقبل خلفه.

غابت به المقاصد وتسابقت إليه الأوزار وتوسعت لكلِّ الأحداث وتفرغ الزمن مَضامينه.

خَفقت طُموحاته وانطلق العنان بكل جدية يعطي ما يفسد وِدَه وغاب في شبر اختلاف رأيه.

تجرب ركوب الجديَّة والجديد يحاول إيقاظ العملاق بصدره ينظر موطن أقدامه، يتحدث لسره، هذا تاريخٌ يحط أسطره الأولى وهذا يفزع ويشحن، هذه محطات بِداخله تتجدَّد وصناديق تتفتَح عن الدنيء والمشاهد التي لا تتكرَّر.

لنْ يتوقف أمام الأيام مهما كانت متعبة ولن تغلبه مُطاردة الطموس الواهنة مهما تجرَّأ.

لِمَا لا يتشطَّب التاريخ الأحلام ويرتبط بما يحمله ؟ ، لماذا يبقى مشروعا للخيال ومحطة للأوهام؟ لم يتوقف عند ما حققه الظرف عليه، لما هو فرصة للضعف؟ وتنهضت به صفه الثائر وأيقن ضميره صَبغة الإنسان الحائر، واستنشق من هواء المقبرة ما أعاد له الحياة، وتسمع صراخ قاطرات الأفكار.

تخيل بالقلب ُمتصاعد، متعنِّت وغرابة ومرارة في نسج فقاعات شفافة ، وباخرة إبحار بدون قبطان.

وقعت مشاعره مِنه ونام فِكره بين الماضي والحاضر .. نام وما اكتنفه وبروح مُستقرة لا ريح ولا نسيم تفك قيوده ، وقع تحت الرذخ، وساقاه ممدودة...

وتحت ظُلمة تغلِّفُ السماء، ونجوم تُنقبت فتاهت في السحاب تراوح نبضه في فقدان بلا رجاء ، واجتمع الفخر والقلب في سرعة أحواض سقت الروح.

روح المجهول تتواصل، لا يحفظها ود ولا وثاق وعصافير ووطاويط تلوِّن السماء، روائح الموتى والتراب تائه في محتقرات الحيوانات .

وتقلصت حواسه وتمددت المسامع لأصوات غير مُتجانسة وبرودة أبترت الأرجل، جسد بلا ظل ومن أين له بالظل وقد توارت الشمس واستبقها القمر إلى المكان. وتراقصت النجوم على ضوء خافت ... تراصت القبور في أحواض نابتة عن الأرض فلم يبق منها إلاَّ الشواهد تعلِّم ، وجذوع أشجار بِلا ظل و أعشاب تراوحت مُنخفضة ومتصاعدة.

أسرار الأرض تتحرَّك وحوت الظلمة المكان، فما كان ماضي انبثق عن ما تحول عن جروح العين ... المكان حزين مثل قلبه الجاثم الجامد.

وفكر به الكثير من الظنون وزاحف الأسقام تثني بالظاهر والباطن ... غطاء الليل يعني له الكتمان وحكايات مجوَّفة بِلا غاية، جمع الأعذار بِروحه، وكل إحساس زاحف، رجل بلا عذر .. مُشتت تتعاطف به فتوحات وأنهار مشاعر ونشأ به التطفل يعمر الخلاء الروحي،

وينشأ الخيال العارم. يتطوَّر الحديث الداخلي به ، وخلاف درَّ عليه الهواجس وألم به ظهر ... خلاف بعث به الحل السائر عن الضياع ماذا بعد هذا، وماذا بعد الوحدة.

نمو الشكوك ارتحل به ورحَّله إلى بعيدٍ .

وتنهَّد به خيال يقبع به ، ماذا عن حاله وما آل إليه ؟ وحيد حتى الصلوات الخمس نام عنها هذا اليوم، وولج بعيدا.

وجمع به الحال واجتماع يحمله فيأخذ به إلى رؤى وخيال مُجاز به كل هم، وتذوَّق لسانه وكبده المرارة، وأمسى مُقتضب التفكير ممعنٌ لكل عرضٍ الروح. الرد صعب وسير مع فوار الأعماق أصعب ... تتجاذبه قوى مجهولة ترسم شكلا لأفكاره بلا فواصل ولا حروف حتى توقف زحف الكلمات وتشتُّتها.

نسج به العنكبوت الماكر خيوط شكَّلت الشكوك وطفح الغبن به وكلُّ هَم.

رسا الليل على مسافة زمنية بعيدة منه وكسا الظلام كل المناخر والثقوب لم يعد لضوء القمر قدرة ولا سلطة.

وراح يُفتِشُ عن مساحة أو باق عن نوام الموتى ، عن مكان يتسع لجثته على هذه الأرض وتشطب الحصى بشطبة وبقايا غصون مُكسرة يابسة وأشواكٍ برزت من التربة.. صرخ جلد يمناه وأنَّ وتلون صفاء كفِّه وترمد، لكنه ... بعيد بمكانه .. ومن أين له بماء يغسل وهو من عفا رائحة الوحل والتراب .. وتلبَّس جسمه بيوضة حتى الآذان.

وتنازعت بداخله أساليب التهكم وصاح العمق، متربصا بحاضره وتخلد بداخله شعور وتخمر حتى اشتم روائح العفن الداخلي وجرذان له مُسودة الباطن.

وفارت وثارت به شهيَّة عن آخر ما تقدم به فما بان لون سرواله الأسود ولا سترته البُنِية حتى معطفه الأسود حتى الركبتين تمسح الجوانب وتجرأ عليه التراب وتكتل.

وأنشد نغم وترانيم لهجر، هو الآن في ليلة اكتمال القمر، أحد عجائب الكون وبَدائعه مكسو تربة وبقايا نبات وزخم الحصى وحجارة من مختلف الأحجام، ما بين قبرين شاهدين خرافة أن ينام وحيدا هنا، والوحشة والنفس تهاب الهجر.

يرتسم جسده على التراب، مُنغمس متخزن، والظلمة تخطب صَمته، على طريق الدنيا إلى الآخرة.

وعَدم الوعي النجاح فتفلَّت وعكس حقيقته الهادئة وظهر الإنسان بداخله، حتى نما به كل صغير وكبر التخيُّل وتشعب وتكاثر وما قلَّ حتى خاب في تفكيك الشفرة والترتيب الغير مضبوط.

أدار رأسه عن دوران الوقت وعن الدماء وشعلة المرارة، ولفَّتْه خِصال دخان يترنَّح كالريشة، وعفا حتى قالت رُوحه إنتهى ولكن أنفاسه ابتدأت تتمدَّد تخط الجدار المتكتِّم في أخذ ورد في لحمة الصدر الآخذ في عزف المضامين ، تصدَّر أنينا عن ما بعث الخلق، تسكن يداه اليمنى واليُسرى وتسكَّن ساقاه وانحدر عن القبر حتى تهدَّر جسده وهام عن ثيابه ... إحتضن رأسه يغمُّ عيونه عن نور للعالم، وظهر ما تخزَّن من آدمية... غاب عن الخلق وعن أهل الأرض.

أيدع القلب العزة، وابتدع الأوجاع بألوان، وتغلَّف بحُمورة ظهرت عن تسلُّخ، وانهار قيد السواعد، وأرخى حبل الشِفاء المشْدود على العنق.

إنسان وشبه إنسان، ضاق صوت النغم به ، شد الأمان لطريق اللا أمان، في صمت وسُبات وفي هجر تهجر، لا رؤية له ولا ما يتحدث عن ما كان.

نام وحط على التراب، رجل يحنُّ إلى أهله وفاقديه وصُوَرٌ و معاقل لليأس تعمُ حلم وحيدا، فقد من حوله ولم تعد تهمه إلاَّ الأشعار تُفرغ ما بجوف وتغيب، وإن كان مُجرب فهو شبه جثة هرب فكره لكنَّه على أرضه، وعلى خُبث من أصوات مُكوَّمة، وخيبة ... لا حياة إلاَّ للدمار.

نام عن الأقاويل ... والقناعة والغنى خطى به خطوة في طريق بعيد مديد ... وخط الخير مسلكً بلا حد، نام على قبرٍ و نام عن كل مصدر نام عن عمر ماض، وضاع حلمه في الحروف ونسى البحث عن أفكار أفضل من أفكار.

* * * * * * *

وأصبح النهار صافيا، مُطبع بعاطفة الربيع، إذ لم تخط خطوة ولم تبتعد شمسه قِمَم الجبال، وبرزت أسرار الربيع تبحث عن نشاط يضم فرحَها، ترغب في الإنتشار بشعور النفس وضعفها لتظهر أوراقها المتساقطة على القبور وبكل مكان .

لا تحتفظ الطبيعة بما يَظهر إلاَّ وأظهرته، تُسمع ما أسرع الإيقاع وتطارحت كل ما من شأنه معارضة الأفكار، وأعرض كل منتقد يحاول التشديد و الهجاء .. بل تَمادح هذا لذاك وجاءت الفرص مُتتالية، مُتوالدة، تتنافر في الأذهان، وتنتقل بين الخضرة المانحة للتراب كل الاهتمام، غير مُثيرة للشرود وغير مَنهية لمهمتها، تتودَّد لها الرياح وفي مقدمة إهتماماتها كسب الجمال .. وتقابل الشعور بمدى أهمية الوافد ليحين كشف المشاعر الممارسة ما يسمع.

جلس بين الشجر وعلى عشب وباقيه ، بعيدا عن الأنظار وعن مسامع أصوات البشر.. لا يَجد جسده بل حلَّ بروح مَرتاحة يتفقد الأسَر الزائرة للمكان، يسمع ما لديهم من رغبة.

بعيون تطلع على الرغبة الكامنة مُستمع لتجدد الحياة ووجود مُهمل، فكَّر في الحصول على قهوة الصباح أو شاي يفيده ممارسة هواية التفكير، وفكَّر في العودة إلى بيته عَلَّه يجد به الأثر ... ولكن كثرتْ ميزاجيته، وفقد صوابه ، وتزايد ما بنفسه من نفور ... لكنَّه عزم على التقدم، بطريقة أسرع من تقليب التفكير، لكي لا يكون صَيدًا لراغب أو مُعالج لإهتمامه يخادع خَطَه أو يرعى الهمل على شخصه.

استند على كفوفه ضاغطا على الأرض المُبللة، حتى غابت أصابعه في غياهب التراب .. ورفع ساقيه يمناه فيساره واستدار على ظهره حتى وقف .. يُحب الرياضة وأهميتها المُعالجة لنفسه الخاملة، ولأنَّه بوقت آخر فقد كان فِما سبق يُخصص لها الوقت، لكنَّه بمكانٍ ليس له، ومن أين له بتوفير الزمن أو الإحساس بما يدفع به إلى الانتفاع بما تعنَّت معه.

وراح يتشمَّم روائح المنفى والهجر وسار وسط المجهول يتفتَّح على باب النغم وأصوات السيارة والمارة، وانبعاث ما لم يتمالكه الهدوء لا يزال بذاكرة الماضي، وسط اللمَة ومنازل الجيران وأهل العمارة بالطابق السفلي كان منزله على مقربة من كشك الشيخ العجوز ... وعلى الرصيف طاولة الدخان للصبي الوافد من الشارع الآخر.

لقد عاد إلى منزله ، وهاهو بالشارع الذي كان يسكنه وعائلته قبل أيام فقط .

سار ّوحيدا" على الرصيف الترابي، غارسا بالأرض ويديه بجيوب مِعطفه ، تأنَّف وتمسح وصحصح فشهد الإشراق وجهه وإن لم يملك قطرة ماء لينفخها في جلده وينتعش.

لم يُر عليه الأثر ولا حل عليه صور للتعثر، بل استعمل هيبته واستطال قامة وسار مُرتجلا، وأحسن التقدم إلى الشارع عليه صفاء وأثر طعون حُزن وغبار مُتمرد مُقاوم لصرخة لا من فرصة لإخراجها ، واستعار من النفس الصبر ومن الطبيعة الربيعية الهدوء، واقتيد مُتبِع الخفت، سابح مع الريح يرسم طريقه روائح الأهل والصحاب.

ابتذل السير ساعة برز الخط الخافت من الشارع وعلى أبواب الحماية المدنية توقف هو ذا مكانهم الظاهر ، خطفته الأنظار وسكن به سكون الحسن، هنا دخل المدارس وهنا تعلَّم وهنا عاش وسكن، وهنا كان صغره وشبابه وكبره.

وشربت به برودة وموات بداخله يعترف صدره ولا يبوح ، به أفكار مريضة وبالية، لا تراه متبسما وعيونه بها بريق غامر يسهِّل طرق تتناقض كلما مد فروع بصره.

أصبح ضروري التغيير وهذا دخيل شعور نمى به ، التغيير يخطو إلى قلبه بإسراره ، وتقاسم الضعف بين ملامح وجسد ...

وهاهي قدماه على سطور المجد يقف عند محطة الحافلات وجماعات الناس في رواح وغداة، وقف ينظر من بعيد إلى الحي، فكان يكفيه مَد البصر، ليفيض المرء ويلم بالبعيد.

منحه الشتاء برودة حبات المطر، وغضب السحاب تفتح له على اسوداد الحظ .. يكفيه الوقوف بعيدا، وأشباح الصُوَّر مُتقنة التنميق، وقف على الحاضر، وتطبَّع على ما صنع الماضي، صِناعة الحجر وفاجعة القدر .. المكان بالظلام، يُكثر من الآلام وأصوات النساء تنوح وأعين الصغار تسأل جمال الربيع، وقد سقاه قبل هذا فضل الشتاء، وقذف ما حمل صدره وضخت وجنتاه حموره .. زمن للعبوس وبرك الدم تحني الرؤوس الكثير من الهم هنا وعلى شفاه الأنام ، سار وحيد وحيدًا أين .. لا يدري.. لكنَّه ينسى كل من حوله، نسي الأهل والأصدقاء العمل والصحاب واحتجب، قيل أنَّه غادر في صمت وقيل يعيش في الظلام ... تآلفت النغمات في مَغانم وقَصَّ الجهل مُجَددا للهواجس .. ولا من يُدرك أسرار القلوب إلاَّ من يُبدع فيطيل الظلام.

* * * * *

وتسحبت الأيام وتظاهر الزمن، تعاقبت الشمس على قمم الجبال أكثر من مرة ، ودارت ساعة الزمن، تُصحح الأيام وتباحث الجديد والقديم في بُعد عن التكرار.

عَلم اليقين بِهجره، وتعب أمره عن المعقول لا من يسأل عنْه ربما ذهب مع الدمار وبما غاب في الظلال، ربما انتحر مع الزمن وما بين بخيل ومنَّان، وسخاء وعفاء، ظهر هذا الصباح على بزوغ الشمس جمع ثيابه في الصباح وجمع معه الأعذار، جالس بأحد الأماكن .. لقد زالت عليه الكثير من الشمس وأمطرته أكثر من مَرة السماء.

تفتَّح الرائي خلايا التخمين، وخيال غذى الحقيقة، وحط النقاط العالية وسلمَّ بالإلهام والتشديد للكسب، الجواب سهل وأسهل منه لَمَا أجاد التغييب المرسوم على الوجه.

دموعه بالجفون تموت والبسمة بالخدود احتكرت البروز وتساقطت أحبال المطر وقرعت الأشعة رأسه وعدم الرأفة بلا شكوى .. وتقوى عن دخيل فقهر خوفه، ترقب خيوط دخان سيجارته، وترحَّل مع السَحر ، وتغلق ثغور الحب، كانت الشمس في السماء ، والقبوربكل مكان ، انحنى على لحية سوداء ومهاب همس قسماته وتخطيط وجهه... ولباس قديم.. مستعمل أكثر من زمنه الحقيقي .

ابتاع من الرجولة ما سُمي بالمروءة، وجفا كثيرا لئلا يتصلَّب عن تيتمه، الخوف من الحلم دفعه إلى الرحيل مع الريح والأعاصير ومن ظلم الأيام ترجَّل يقي مَطبات الأرض وظلم التراب.

يُشَاكي الدهر عِواجه، وسَلبٍ الهم مِن الأيام، يستنجد بالكلمات في صَمت ونفسه في مرارة الخلد.

كَبر حُلمه وأيدي احْمَرت وتقاسمت ما مرَّ عليها من فصول ووسط أوراق مَنسيَّة ووسط قبور وهَمل، مَكانُ موحش للآدميين، لا يؤمُه مَاشٍ على الأقدام ، ظهر جالسا على صَخر أصَم، ووجود اختصَر المقال، وسَط الخَفاء قبع أسمر لون البشرة ، رمادي الثياب، بَالي، وعلى مقربة من كوخ فاض به المكان، مال إلى عُمقِ التفكير والتذكُّر . ولقي وعده على حجر جانب بوابة خشبية وجدران بقايا اللوح والحديد وأبواب السيارة مفقودة لأسقف من خشب وتبن على حوافي الجدران أجور يسند ويقوي كان هذا مأواه في الليل العميق والصمت، زاده إسراره إرتفاع نبض الحياة به والإقدام على الجديد منها.

مال مع الهواء وانحنى وهوى، وتركب الوافد والجاري.

يفتح مَع البَدر المُطل ويغفو مع الظلمة ووِميض النجوم ويسر في كتم الليل، فيطرح المَحفوظ بصدره.

وإن كانت مادت الأرض أسفله ذات يوم فلن تكون بما يهفو لها قلبه ولا بما يتوجس له خوفا مما كان، وبنا لنفسه كوخا، بيتًا مضروب بالوحل وعلو لم يعلو على المتر والنصف، وعلى جنبات الكوخ عُلبٌ وحَاويات ماء، وأوراق وشُتات يبحث اللمِّ، إذ ضاق بِسرّه المكان فجهر، وغبر شعائر أيامه فكان يقوم الليل وفي الصباح.. وبالصلوات الخمس في كل يوم، بعدما كان يجمعها مرة في العشية من كل يوم، وسقته سكينة النفس كل الوقار بجانب الموتى لا يهاب الموت وبين جوانحه الحياة مع الغائبين فلا يهاب ولا يغترب.

هو ابن الدار، وانكسرت الغرابة حوله وكل الحواجز وفك تشابك خيوط الزمن، ودر عليه القدر بالكثير من الصبر.

وتبيَّن كلَّ ما اختبأ بالقلب، مِما تقدم به الغبن.

تمضي الأيام، آتية وغادية بما يُفرح ويُحزن، واستقى هو الزمن الاعتدال، سقط من أحضان الدفء واحتضنه اليأس والوحدة، تسمع صوت الناي، وبريق مشوب بالظلام وشهد الزمن المار على من حط بالمكان.

صاحب عزيمة يحتمي بجسد تجاذب القوة، وترمقه عيونه إماء المجهول، نظر إلى العيوب، والجهد والبلاء، وتحب ما لم تجذبه السماء.

سَار مع الليل إلى الصباح، ووصَل مع نور الفجر وأصوات الحمام، الوافد. يُحاكي الطَير ما ضاق به صَدره، و يَعتصر من دنياه الراسمة على الخدود َمبسمه.

على واد ومدمع حوض وعلى وجود أخفاه الجبل .. يلبس شعور الفقير ويستبرك موجة البرد الحاملة لدفء المودة.

يميل رأسه لالتقاط ما يطل حوله ويتمسح عيونه بجهد مثقل وجاهد، لا يملك قلبه إلاَّ أنفاسا اهتزت من الذاكرة وما قرصن حياته، مَطمع النظر كل جديد، ومطمعه محاربة ما سكت داخله، تمتع بهدوء وعيون ابتعدت عن الواقع من يواجه نفورًا أو يُحاول تصديق نفسه علَّه يستطيع تقدير بثقة ما يدور به.

رَتَّب حياته على الجديد وحاول كسب الحال لئلا تضيع الفرصَة في احتضان العُمر.

مع كل صباح وقبل تجاوز خصلات الشمس الأفق، يَعبُر إلى المحلات وإلى المخبزة يحمل ما يحتاجه وما يسدُّ حاجته اليومية لئلا تُشرق الشمس حتى يَخيط على نفسه بالكوخ، وحاول كسب مَوردًا للماء ... فابتاع حاوية وبعض الأواني لتفي بالغرض ، وعن الكهرباء قد اكتفى بضوء شمعة، واستثمر ما حمله له الأفق لذا فقد أسرع في اتخاذ القرارات السريعة في علاقاته بالآخرين، وحيدا دائما يُرى يُحاول تجاوز الفرصْ العابرة.. وأي مخاطر ليلية، حمل معه الخنجر والمِطرقة وبعض القضبان الحديدية بكل الأحجام.

ولأنَّه على صدق بما بنفسه وبما يحياه وما حوله ولأنَّ صدقه في قراره حتم الوقوف على الصواب وانتبه إلى أمره إذ لم يغدو مُؤقتا، هو الآن على الأرض وعلى عيون البشر وكل نظرة أو كلمة في حقِّه قد تثبت به.

فَكر في كسب رِزقه وأنَّ عليه العمل ليعيش وأنَّ ما بجُيوبه لن يكون نفاذه ببعيد، لأنَّه مُلهم وفي نفسه من غزارة العطاء ما يعتمد عليه في تلاشي حبل الإحباط أو الروتين.

هذا يومه ليُوري العالم قدراته ويُحقق مشاريعه مولوع بالجديد وبالاختراعات يحب خرق المألوف ويتلذَّذ لِمَا يُسمع ما ابتعدت فيه الحياة، وتخمَّن النجاح والخط في إيقاف الناس إليه أو توجيههم لقصده.

تعهد صغره لقراءة القرآن الكريم حتى لحق ختامه وهو لا يتجاوز العاشرة من عمره، أثار فضول الكثير وأفرطوا موالات الانتباه نحوه، وتزيَّن بالتعليم حتى نبغ واحتاط لحياته بشهادة عليَا، مُحب للهندسة وفن التعمير مُزدوج حياته وحقيقة مَلكته الاحترام والمكانة مع من حَوله.

رأى العالم موضع قدماه، وتنحى عن الكثير من الرذيلة، وأشعل ما تعلَّمه ليثير فُضوله ويُحقق لحياته ما ابتغى.

بحث في شجرة نَسبه، وتجاذب شجرة الأولياء المار من هنا وكل إنسان عادي وشبهه، اختص بحفظ من الأقوال الصوفية ما يمنحه نشوة تكفيه، واتبع أصحاب المكرمات والفضل عن باقي البشر، له رؤية متفرعة تجتمع في هدف وشَدَّ طريق يريده، ولأنَّ للمقبرة من الدراويش ما ظهر ووضح النهار إلاَّ أنَّهم كانوا على عقلية جديدة خفيفة غير مادة لجذور قد تمنح الموقع والاحترافية وقد يساعده ذلك على التزايد في الإرساء على طموحه.

وقد وجد التأخير يُفرط في التوتر ويُقدِّم الأفكار فقد إنطلق إلى جنى الثمر .

* * * *

ومع مرور الأيام عَبر إلى حياة توقتت له، وبان مبدء فعل الهجر والوحدة، أصبح حديث الألسن، من أحبَ السفن ولم يترهَب مِن ركوب البحر، ومن قال فقد توازنه النفسي، وكل إيمان مغروس بجوانحه ظهر غرسه، ومن قال أحيا الموات، وتفكير أوصله إلى مأزق وآخر اجْترَّ الكلمات، ينظر ماذا يقول مَن حوله.

ومن يقول سمع أصواتا تُناديه فنهض مع حضرٍ هكذا، ومن رآه كالطفل يلعب في الأرض وأنَّه تعرض للموت فتبدَّل إلى ما هو عليه، وتتحدث الألسن ولا تزال تتحدث.

إلهام أو أشياء تقرع قلبه وتشعره ببعض الملل وأحيانًا بكثير من النشوة باب قلبه مجاوب وبِكل ما تملَّك إلى حَدٍ أقصاه.

لا من يجحد حال وجهه وهيأة راحت عن السنون الطوال وعن إنسان تفكيره وصل إلى التحرُّر والاحتراز دون قيد.

إستفاد من العَثر وقفز على حبال متينة ووفته الزلَّة لكن إحباطه لم ينساه، وطاقته لم تكبح عِنان التوتر، صُوَرها تثير به ألوان العذابات، وأشرقت صور عيونها بملامح تسطع بالسحر، صُور ستسمح باصطحاب الأفكار المُستعجلة،"إنها ليلى" وجهها الأبيض وعيونها البندقية، بسمتها النافذة المحركة لأسرار القلب صاحبة الحجاب الأسود والخمار الأبيض صاحبة القد الممشوق المبتعد، فرصة حط عندها القدر.

تحولت حسابات أيامه إلى المجهول، وفي لحظة شعر أنَّه افتقدها ينتظرها كل عشية عند الُمنعطف وتبالغ في مدح مشيتها وهي عشوائية الخطى: يستحسن وترضى بما إحساسه يحمله إليها، حاول الاسترخاء في الطبيعة ليعيش حياته معها أطول، وتصرَّف بنزواته يتجاوب مع بسمتها لكنها كانت بخياله فقط . ولأنَّ الوحدة فرصة لإصلاح النفوس، وبعث النظرة والتصويب، ولأنَّ الجلوس تحت السماء وعلى تراب الأرض يوصله بما انكسر بقلبه، ولأنَّه بهذا المكان تطل عليه عيون السماء، ويقترب إليه القمر الخافت ولأنَّه عرف طريقه إلى الشمس، كان يجلس هنا. تلونت وتنوعت تُحَف تطايرت في الأفق .

وصفى لون وجهه وسارت سريرته في جثة تلفت في تراب، ورماد لا يحتسب رائيه إلاَّ سقوط أو إقلاع عن الألفة، فرصته في الخلوة وفرصته لإرسال نوع من التحديث على فكره.

خطوات القدر تسقي أيامه، وتقدِّم لروحه واسع الجزل... إنسان جَلود بعيون الأسود، بجسد صبور مُستعار من الطبيعة رائد الصد قاهر المد... إستهدفته الأيام وقصده الزمن.

ترجم ما إحتاجه ما ظهر عليه، على هندام يكسوه وسير يخطوه وسهو يغرق فيه.

رجل الحكاوي، رجل الوحدة، وليد الأبوين الأحرار يعيش معيشة الأحرار، تركب وعاش وتعقد.

حرق ما كان من الأيام وظهر.

لبس الشفوف وما أمطره القدر.

من مدينة الشلف هو وابن الحياة الوسطية .. ابن الأرض والتربة وليد الفلاحة والأرزاق من لفوف الأصابع.

قطع رموش الثقة واشتغالها بنظرة الإنزلاق إلى الهمل ، وأصلٌ غال الأمر مُتعلق بما ينتظره.

إن لم تكن ذئبا نالت منك الوحوش وإن لم تكن من بواكر التربة تسحَبتك الطبيعة.

....

توقف على واد الشلف ووقف على مِياهه الشحيحة فما لم تدر به السماء، سقى ماؤه ما ترقد من غرس وقوَّى الحياة العنيفة حوله وأغمض وعكس وميض عصف بالتحدي، وتشرَّع الرضا من العبد لربه.

تقيَّد بالظروف ... وربط تقدمه وتأخره بما بينهما بركائز الإرث المدني، الناس من حوله معروف أمرهم تجنحوا ليوم الجمعة من الأسبوع إلى مكان واحد ... فلا تكاد ترى بشر ولاَّ حركة عجلة، إلاَّ وتغيبت في ملامح المدنية وزوال الألفة في زواج الصمت والضجة.

والرجل تقيَّد بِخمسة صلوات في النهار والشمس تجهل مَكانها، واستنجدت حُريته بالإساءة للقهر، فردَّ عن ما ترقد به بغمس في لحظات كثيرة للعبادة، ولأنَّ نبذه وفقره مِن مَا نسجه عصَّر عظمته وخرق الدخيل حلوه، ورِدَّة طوته وطوَرته.

سحر الليل أشع .. ووقف أمام العالم وعيون تسبَّح رموز مُتاحة له . بكتيريا النفس القديمة، تُراوح الحديث في عملية بتر للحفاظ على القدرة والهيأة وعلى سواعد تَحمل له مبيت وإن لم يفصل عن تفاصيل تشييدها.

العالم حوله بارد، وقبله جو المدينة البارد الرطب ما شاء الله وإن كان قبل أو بعد الأوان.

وانتفض الحال على ما لم يكن عليه، ومن اعتدال ووسطية وتموج، ترنح على حسن وسرور إلى نسيم يسير نحوى الشمس تصطحبه برودة ورياح تتمادى وتتعالى حتى تتجرأ.

ومع وفرة غيوم هنا وهناك إلتقى الجمع على موعد العطاء، وتزاحمت حبات المطر، أين فرَّت الحُرقة وتسترق الغيوم المكان.

ووقف البرق ينتظر الدور من بعيد من وراء الجبل المُدبب.

قلب السماء مُفعم والطبيعة تغترف وتلقي على الأرض التي أعدمت الحياة الهادئة وسائر الإعتياد.

إسقاطات على نحته الحلل، وتسجن في كوخه.. حرارة الآهة بصدره وضجة تحجَّرت بالخارج كانت ولا زالت صعبة التعامل معها، والمأخذ عن ضخ السماء، شدة تُوجب الحاجة لقبولها.

ولا يزال الحال في التوسع والتعمق، أرسلت الرياح موسيقاها تحمل في الظهور بقايا العلب وأوراق الشجر وكل همل.

* * * *

للمكان ما يوقف الفطر ويبعث على التأمل في تأليف حفر أغوار الأرض، بعيدة هي الأحداث وعلى ألسنة تشردت منها ما ظلفت بما أمكن نحته ومنها ما ذرف أشعة بلا ضياء، وتأخذت البذرة في التخطي.

وللأقاويل حرية لا حدود تقف عندها " سادة الأرض " هكذا يُلقب ظهور الغريب "الشاب وحيد" بعد مغيب الشمس، أو مع الهجيرة، أغاريب ومقاصد معارضة للواقع، تعصرت الخيال تحمل ما يشد الإساءة حينا وزحف الجهل من جانب آخر... مال رأسه وتصرف بما أرسل رسائل ضيقة على النفس فغيَّرت الصمت.

على الجدار الداخلي للوادي فوهة، دسَّت ظلمة قاتمة أضاعت النظر، وعلى قطر المنزل قِيست، وبِعمر المدينة عَمَرت، وترجم القلب ما جوف نور الصبح.

هزت النوازع المكان، وتفجر ضيق التفكير، يُعالج النقص ويسد، شَده الفضول إلى إلقاء نظرة أو زيارة ما يقضي على الإبهام أو يكف الفكر عن السؤال.

لم تكن أخيلته دافعة ولا الحاجز الزمني دافع، ولا لسعة الخيال ما يحمل على الخوف، بل أنَّه يملك الجو ليطير، ووجود بوادر الرؤى الغير واضحة يستجيب لتذَوُّقه وتطبيق ما يجرفه، ويتبع مُيوله ويُمتِّع أيامه وكيف للروح بلا حجاب أن تتألق هنا وتشغل بما يثور على المألوف.

بقايا جدران على شَفة الوادي وأسُس لما كان يحفر بالأرض، وعلى ما دنى تسارعت الأقاويل وتجمَّعت حول الخندق المُتفتح، شبت المكتبة وسط الصراخ، ونمت عشرات الأقاويل تنظر ما لم تتكلم فيه وما تكلمت فيه الألسن.

الأرض طينة البشر، وبنفس كل هوية إمتلأت آدمية تخفي وتظهر من العاطفة ومكنونات الذات شيوخ بأجساد أطفال وصغار أدركها المشيب إبتعد عن العيون، ولأنَّه لا يحتاج ولا يحتاجونه لا يريد ولا يريدونه. توترت الهتافات بداخله ما شأنه بغيره وما شأن غيره به .. لِمَا يطرق المجال الضيق ولِمَا يقبع على أرض ما بقي منها إلاَّ الحجارة.

الناس كُلٌ في شأن، وإن كانوا يجتمعون في جماعات ويتناقشون فيمَا ألمَّ الجميع يجلسون

هذا لذاك ويكشف هذا لذاك ..لكن فِما ألمَّ بك من ألم ، و من أسى يفتح عليهم ما لم يرضوا

به "وحيدٌ" عصفور في سماءه وعلى الأرض من المارة صور خبيثة يجب أن تكسر وسحابة خفيفة وأثقلت قلوبا كثيرة إبتلت برؤية الناس ودموع تنهمر أمام

الصعاب فلا من يوسع ضيقها، خسف وكسف، خطط ملامح الناس.

أبطال السحر هم اليوم ما أكثرهم إذا أصبحتَ وأمستَ ، وإن تسأل فلا تُفَصِّل لأنَّك أمام نقطة البُرقع، والكثير يعرض عنك وأنت على الطريق، وإن وقعت عثرت وإنْ كنت على شفير القبر، وابتليت برؤية أحدهم فلا يجزعك، إنْ لم يلق عليك النظرة.

يترفَّق بك ويُحسن خطابك وتعذر بعض الأحيان هذا إن كنت أمام إنسان منك أو لك، وكلما بعدت وطالت معرفتك أو تجاهلت أحدهم فلا تأخذه على ما لم يهتم بك. هنا لم يصل حق

تقدير الفرد حق تقديره أخوك مهيب الجانب، صاحب الخصومة، وإن عزمت تأليف صداقة فإعرض على واقعك، هذا المَطلب عظيم الجانب صوت حزين، ضاق الفضاء وصعب إنبعاث أولى العصب ... أثقلت للمشاعل الأجساد وحبست النفس بالقلب وألسن تتفنن في تصغير كبير الحجم ومُصاحبة اللِين للشدة .. أتنازل في الكلمات على الزيادة، ومِداد الكلمات على القيادة، تخالف الطبيعة والسيرة.

دلائل وضَاحة باهرة برقت وأطفأت كما فعلت الشمس كل يوم تَولَد وتموت وبين هذا وذلك ما أثر للحياة وقدر، القوة تتبع من دفع وتُقلع عن من عفا وأغفل صَفوة للناس، هذا ما قيل، والطير من طلعت عليه الشمس إتصل بنهار عمله، من عَلاَ الناس علاَ العقول وقاد ومن دَلَّ ولو بغرور ملك ما تملك العائد من بلاد الغرب ومن تنتشله الرفقة وحلاوة الروح غرق بما شاق صدره.

إشتعل الشَعْر بما إبتلى من بريق، وفي مَحافل التنازل كتب الفحم الأسود الظرف الأبيض، وجه آخر يقرع صدى الرأس، مُلاطفة وتعزية.

وعلى بِساط مُصاحب للسكينة ووسط صراخ الهجر وغرس خال من الحياة ينظر ما كان وما هو إليه غاد، لا حواجز على الظلمة ومَظاهر تغيَّرت وتحركت العيون... لا مُتكلم ولا من تكلم وخلف الحال ما يحمل كل احتمال.

تهرَّب النُعاس عن عيونه وضخ في روحه ما يتبعه بقوة لإعفائه، فما ملك الآن هددها ليتملكها.

ورَاح يُطيل النظر بالسقف المخْتلف المُحمل أوراق وبقايا عُلب وخشب وصفائح حديدية يتوسط جرائد كومها وبساط من الجلد إفترشه.

يرى في داخله مَواقف صفت وجرأت عليه لم تنتشله من ضعف نفسه، فراح يناولها في وضعية تنافرت في زمان مضى للخيال.

سمت روحه وخاب فِما غاب، أتمهَّل أم أحتبس؟ أكف أم أطلق؟، صور خبيثة تربت بمخيلته وضخَّت فِمَا وضح للنائم.

تضخَّم ما بذاته، وتفتَّح على ما كان صُوَر خبيثة تيسَرت وتشكلت بنواقظ مُتكاملة.

وفي خِفة وصَمت كثير، وفي إحتضار بلا حواجز تتفتح عيونه ليرى النور فوق رأسه، وعلى مقربة من جبينه مُعلق مُصوَّب بجدار القش، وفي لمح غدا الطيف إلى بقية الجدران، مُصوبًا، إنقلب إلى منبعه وما خلف العوالم من شرود، النور يُلقى مِن أعلى أو... لا.. لا من فوهة الكوخ، لا... فالباب مُقفل.

تحتضَّر بقلبه رغم الزمن شموع توقف النور عند الشكوك وشكوك تَشغله تُشغِّل دواليب التخمين التكهن.

صَمت وفي صمته ضجة، وجاش، وحسرته آلام الجهل تُعمق عميقا في شكل صُور مرسومة.

خيبة للفهم... لكن الضوء خفا وتفقده فكانت أن تمسحته الظلمة، وبالغت.

تصنَّعت عيونه الدهشة وتوسَعت على ما كانت وتعمَّق مفهومه حتى تأسى ألمًا و تقيَّد.

أسند يديه إلى الأرض وضغط حتى إرتفع رأسه وظهره وتجاذب إلى أعلى حتى جلس.

صَمت صَمْتُ الضجة، وإسترق مِن قلبه الجُمود وإحفرَّت عيونه ما بين ضلوعه حتى تدفقت بما كدر وضعف مربضها.

وقف أخيرا و لبس معطفه وبحث عن علبة الكبريت، تحسَّسها من داخل جيب القميص حَملها في يمناها وتراجع عن قرعِ عود.

تيسَر السير نحو الباب فتحه في شق لا يتنزل صوتٌ.

وقلَّب في كل مكان بعيد وقريب بظل أو بنور لكن... لا هلع ولا خبر عن حال الضوء.

وسار قليلا مُجانبا الكوخ في خفة وحذر، وأطفأ من النور ما ظهر ، ووعى من هبات للريح تجمع ما وقع في الخيال وعجيج سجى ألحانًا للطبيعة.

أزف الليل إلى مؤخرته، ووهبت الأرض والسماء غفلة مُوحشة عاقرت وأخمرت إضافة مُضيفة نسيج الظلام .

مُفلس العواطف، وأفقده عواء الذئاب الصبر ومن أين خرج وعاد، عاد إلى فراشه وغلق الباب خلفه، وتأكَّد..

ماذا كانت تلك الومضات ومن أين؟ ، لم يجد الأمان وقد نبع الشك من داخله جروح ببطنه جرَّحته وتضاربت أمعاؤه، والبقية لم يعنيها بإنتباه.

وتمدد مُتوسدا يُمناه نارا لخياله القدر الكثير من لمح عنى لَها طرح ما به من إنتباه.
وإن توقف عن تفجيع الضمير وقظِّه، فصُورتها واصلت رسم ملامحها تنوعت وتسلط حتى توضحت في صورة حية.
عيونها رمز للحياة... وهوى للزمان نغم وترا أوتر أيامه.
قالت له ذات الحين لا تهزأ بعتابي ولا تمرّر كما تمر كل يوم بأسوار الشارع، لا تركب القصِّ فتقتص منك الأيام، ولا ترمي بنظرات تقول أنتَ في غنى عني، وتقلَّب في فراشه دونما فتح للعيون، فقالت: أخبرني على حالك، وتذكر.. لا تتذكر أوقاتا هَوت هنا، وساعات نحن نيام عنها، تذكر ني واسمع عني ، كانت هذه ليلى معه في منامه.
تكلَّم في نفسه كثيرا ووجد ضالته وضالة نومه وإن كان البعد أروعه وروَّع هدوءه فالنوم يرجع به الذكرى نعيم وعذاب وعدول عن هذا أو ذاك.
قلْب موجع مَصلوب، وأصلب منه ما ضجَّعه، بهيام غابت عنه القيود وبأنشودة تعلو من جُرم دام.. تناثرت وتسربلت حبات الرمل مُسرعة ما بين ضُعف الأصابع وفي سُرعة لا مُتناهية في دائرة وحركة دائرة، يتحرك به الإعصار ومَد التيار.
صُورتها ووجودها ضحكاتها وبسمتها، سيرها وهرولتها دهشتها وحيرتها، تحنُّنها إليه وعَطفها على حاله، كلُّه ذكرى ضربت بعدًا وهيَّجت براءته.
وتراءت من جلبات وعيون تهوى وتُغمض، وتبللت عيون بنوح لحمام، نُوح البريء المَغصوب، والمُعذَّب المصلوب.
والمقام رسم لها المقام وطار القلب بالأشواق، يكاتبها بأدلة وبدونها، زاحمته الحيرة، مرهق عوز وصبغة الصبي المفطوم تلون ملامح النائم الغائب.
حُبٌ وعِشق وفقدان وطول بال سِعة لفكر أبدع الأحزان.
كعادتها بانت شمس الصبح فوق قمة الجبل البعيد وتنفَّس السحاب خِفَّة وبرودة تحمل ما ترك الليل البارد في فكره ومن ضلوعه بل كلٌ خفا أمام ضوء الصباح وبين الجحور والمَطب ثار ما تكفن وتضاعف بين التربة والصخر، لكن ما ظهر على خبث الظلام وتقصد المكان، كان هنا على هذه الأرض ووقف على بُعد قريب لا يتحمَّل ظن.

أخذ كوب شاي على نار مُدَجة من قارورة غاز إبتاعها لذلك.. مع الضحى قضى كل إحتياجاته، وكَفَّ على ما ظهر.. وابد على صلاة الفجر، ضبط يومياته على ذلك، وتشارك في تسابيح صاحبت صلاته، وجلس إلى ضياء الشمس الأول مُصاحبا بأفكاره.

في هذا الزمن راهن على الابتعاد مُنبها إلى ما يَشغله مُرافقا بآخر النجوم.. موقف سير ما يستمر فيه.

ومع إبتداع اليوم للتغيير، هذه الوقفة تُغير النفس وموعد أبدى له طريقة للخروج عن الشيء الغير مجدي عنده، ألقى النظر على الأقرب وما به بالأعماق و على السطح يتجدد كل صباح، وتتحرك به إرادة جديدة، إرادة تُمكنه مُحاربة المجهول وما لا ينظره خلفه.

يسكت كثيرا واضحٌ ما يريده... مُوقِفا مُطاردة الإزعاج وحالة ثرثرة الساعات.

فَقَدَ علاقاته ووجد علاقات إهتمت بأمره عمدت بِه إلى حل مشاكله بفكره وبإمرة من يديه.

قد يجد عليه بالجديد، وتعدو إليه العواطف، قد يحدث معه التغيير وتجعله الأيام على كفوف التجربة، فما أعدَّ لذلك من حِكمة، وقد يتصادف والخيال وينسحب إلى واقع صَدمه بعنت.

تبخَّل التلاطف وسيطر على الكثير مِن ما لديه مِن فرصٍ تُمكنه تفجير ما به.

يستغِّل الهدوء، وزَحف الثواني، خَطى الصبح وتجدَّد ككلِّ يومٍ لِيُجدد الرؤية.

إبتعد في شأنه الكثير، وقفز على الكثير من الأيام، تفتح طَوق العُزلة، وتهرَّب عن ذاتية تستهلكه، وإن أوى لِنفسه، وتسكَّن رغبته فقد تغلَّب على تردده.

تراجع خطوات في أمور شخصيته وتسلَّم عن نفسه تغيرات تنبَه إليها، شَرط الزمان شرطه، تخرَّجت الكرة من بين يديه، عليه تعديل صفر اليدين وبذله للمال مَوافق لِما مَعه وبجيبه وقد منع المجاورة وتغيُّر مكانه وكشف العورة، عليه الكثير وكبح طفق الأفكار ما له يكفُ يومه تحذر أخطاء الغفلة والأمان، والسوء من كل الأنواع، النفقات ستفيض والمال ناقص سيبلى بلاء السوء. لا أحب السكوت والهرق ولا ضمير مُتصل بلحظات القدر الغير منصف لما إنبعث بالناس من تسلطن، تجنَّب التعامل برصيده الماضي وتطمَّح إثارة تأخذه ما جعله عظيم الأمل، يحمل للنفس صفقات عقدت على الصبر.

كثرت الأفكار وتعب الجسد والفكر حملها وتجرَّب إحساس مُتنافس في فرص تمسكت بِأموره.

تَعب طريق الليل وقساوة مُفرط حاولت توريطه عليه إتباع شيء من التغيير عليه إيجاد حُرقة تبعده عن اليأس، ومن كان نشطا تمنَّع جَر القيد ونصف فكر في السيل وتشارك قُوَته الروحية وما تبلغ من قيم يُخبرها عمليا بِما وفد عليه.

والحقيقة يَحيا أياما صَعبة، وساعاته تستثمر في الإفلاس المَالي، وتغرق في مُستنقع ركبه حتى تقعَّر الرأس.

يجلس وحيدا، وشعوره، تجنب مُشاحنات الأخذ والرد والطرح والإسرار، وعلاقات في الأفق عابرة مُجاوزة ومُتجاوزة زمن أحاسيسه لتعمل قاضيًا على صبره . كثير تَحضُّر الراحة النفسية بين الحين والحين.

وفجأة داخله شعور يجذبه يقتنصه، الفرصة تَعْبُره وتعبِّر عن نفسها.

شخصه مفتوح ليتبيَّن شُعور مُبتسم له.

كثير حفظ القرآن وأجاز فيه، ترتاح نفسه ويقر ويشفى من خلط ما يعوز ما يحوزه إذا ما إجتمع على كتاب القرآن بارع في التخمين للمستقبل، سريع فيه، أو ليس صاحب رؤية لِما آل إليه أو لم ينهض ذات فجر على الفاجعة...

وفاضت به الجرأة وتجرأ على كلِّ الحدود، ترك العمل لِمِخيال وسع الأفق، وتجعل لكل شيء سبب.

تبدَّد ما به من صلب، وتحركت سحابات سماءه بألوان نارية رمت الأهداف البعيدة.

حسن سوء التفاهم بينه وبين ظنِّه، وتخرَّج عن الأسلوب الخمل لتنفتح أمامه الحلول.

صرف تفكيره وتملك العَلاوة: إحتكم إلى الأداة ووجد الفائدة، في الحال يتخذ أمره، لن يتحسَّب ولن يهمل الفترة بكفيه ما رسى عليه . والنوايا... لا بقية ولا ما يُخفيه للصُدفة.

وقد تقدم به أفضل عرض وتشارك النجاح لن يتأخر عن طريقه، عليه ترتيب يومه وإن يتبع آرائه عليه بالجرأة الكثيرة والكثير مِن الرهبة، عليه إتخاذ منَ الشِدَة والقوة مِنظار يَحق حقوقه.

لن يترك نفسه للضُعف فريسة.

ولأنَّه قد يكون عرضة لكل دخيل ولكل إنسان وعرضة كل شك، لن يترك شيء لسابقة الظن، ولا ضوءه للتمضية، تمتلكه أفكار غير عادية، وتمكنه على الصعوبات الصغيرة

وأكثر منها في الاستغلال، وتحوَّل على الكثير من الأوهام فلا يُفوِّت فرصة إلاَّ سلبها النجاح وأتمها بإنجاز، سريع المجنون ومُتحمس، متسامحا كالإمام وعظيم كأصحاب المسؤولية العظام، تعلَّم مِن ما رآه مع الناس وتفهم.

وتدخَّل صراعات وتفتق الربط، وتوقف على عتبة مَشروعه الجديد وإحتضن ساعديه متأملا.

* * * *

نامت الساعات وتسارعت الأيام صحا فيه الإنسان الحي، وتنقل مَجاهلا وأخذ عن الدنيا هيبة وصراع.

وقف على أرض بنَّاءة تركت الأثر، وظهر ما دس، مَضرب خفيَّة تآلفت... وحفرت أغوارها بعيدا.

لم يعد يظهر كثيرا أمام بيته، ولم يعد يجلس على فتحة الباب، توسع مجلسه، سقيفة تفتقت وأخذت لها إنشراح البيت.

ولأنَّ الأحداث تفتقت، وتشادت ظلف وعمق من إمتثل حتى أصاب مِمَا أسى. وتقلَّد مَحرزة الأمر.

ومن عصب مُحرق... وأيام مُحركة بمؤامرة عميل الزمن، إلى متكهن، وبائع للحظ.

وتمثل في مشهد الرجل العظيم، رجل مُثقل الضمير، ومِثالية جعلته شخصا مُخوَّل للسماع.

مَد ترجيحاته على قدر وغير ذلك.

ولأنَّ الحيلة مَحك الشجاعة والخطر مَحك الإقدام تم إغلاق مُحكم على الماضي، وتحضَّر أمام كل ذنب وليك، تَسلق في مسعى الأحداث والصعوبة وكل لذع أطلق ألسنة النيران تسمعه لطخات الزمن، ولظيظه، لكنَّه أَلِفَ لعب الصعاب وتعنيف الأيدي، وتلاعب اللفظ واللعظ، بلفيف الأمان، ماذا وقد شدَّ الخيط عن بُكرة وتبيَّن أولى الأدلة، وإستنزل بهذه الأرض، لا يلوي على أحد ولا أحد يلوي عليه.

تقوَّس تفكيره إلى الداخل معقود اللواء على الأمام فلا تبزغ شمس صباح ولا تنضوي تحت غطاء الليل إلاَّ وقد كان زاره مجموعة من القاصدين الطالبين للحظ وقراءة ما بقي من العمر على يدٍ مبسوطة ، أو على الورق .

داس على ماضيه ودسَّه في وعر التراب، ودرب الأمان وتدرَّب، وبمعاني دعته في صفاء وأيام وصفت له العلاج، تلّون سِحر عيونه بشعاع الشمس الشارقة.

وخطى خطوات القادم الجديد ُممتلئ القلب والجيوب صدقه اَمنًا وتشعر ما غاص به.

تقاذف بالنقود والزهر، وبصَّ من مأزق بلباقة مُتنزلة ، ونام عن ضوضاء الليل وطاف مع هبوط الشمس إلى المغيب حول الكوخ يغرس قضيبا حاد عن حفرته أو صفيحة زالت عن محلها.

كوخ من الرقِّ ولوحٍ وخشب وكسر الزجاج وباقيا علب ولوالب، لمع وسطع بريقها.

لمس الحقائق، ومسَّته الأيدي، أضفى اللمسات الأخيرة على الحياة هنا، عازفا نغما فيها لمحة عن ما كان لحياتهن ولمح بريق شرر، كان يلوي الإيواء إلى فراشه.

وإستهلت الدنيا والأيام وتنقل من صراع الزمن إلى تحدي أضاء الظلمة، وتهمس في الآذان- ماذا عن مجاهل الأسى وثغرات جاءت بالتخريب- ماذا عن إحتلالات فتحت لهواء وبرودة- فماذا عن أفكار إستعمارية تخرَّجته عن التصَرُّف المَوقف على الأقدام؟.

وتيَسر إلى فراشه، وتغيَّب عن ما قلب له المفاهيم، ومشاهد تقصده.

وتوسَّد ذراعه.. وتماضى مع زحف تعذيب الجفون، ينحني على صدره يدس هموما ومتاعب غرست به الجفا... ودَرب سار به بأمانة ، حتى غطى الحطب خطاب العيون، وأحقها بالتغيب للنسيان.

بأرض لا إنسان على فراده ولا مجتمع، وعلى أقدام الموتى ينام لا أنيس ولا حياة، وعلى تربة بسط الظلام والشمس تُقيد الزمان.

ولا تزال به أفكاره وإن كان معه رماد الأفكار، وسواد يكسو الجبين.

وعلى سفح ضريح ينام، خلع عن غرس ونام ببطن التراب هنا. غاص في حبات الرمل والحصى، وعيون بدت لا تعي ما حولها.

والخلود يخطو إليه وإليه يخطو، أعَمَّر أم لا.. أغاص حتى قنع أم لا، لكنه يعي ممتلئ الصدر والظن.

وبدا بصيص البريق يزحف حتى إلى الجدران فوقه وعلاه، تَلفت بعينيه بصمت يشق الحذر في ضجة وسحر الشعاع الخافت يثير دائرة بالقش والجدران اللوحي القائم، وخيوط الحلم ترسم ما نبذ نومه واصطاده عن بحره..

ورع النظر وعلَّ ما أخرجه عن سابق هدوءه مُطوَّل النور المُتكسر فوقه.

يجره إلى إقالة وعثر، وطول حياة.

تفتح البصر وأطال النظر، وهنا بدا النور مُتحركا، تلفت إلى الباب فوجده مغلق، لكن به هرسٌ ترك للنور مَنفذ ولأنَّه من بقايا صفائح مصدأة ، متروكة جرى به نفاذ من كل مكان خفيف، وتفلت. وعلى ضغط السؤال عن المجهول، وإختلط بنوع من الرفض والتستر، ونواح داخلي، إزداد به الفضول، و النور لا يزال ينبعث حوله في رفض ضِدَّ الإدارة.

وعليه حالات صمت حولتْه إلى حدود الشراسة وتقلب كل ما به حتى إنقلب الضوء إليه وهو يقترب إلى وجهه من يبحث عن ملامحه. وبلا وعي ولا عقل حاسب مُتحاسب يُشرف عليه النور في بحث، وإنقلب معه يُكاشفه صَمت وأوقف الحركة توقف مَد صدره ونفخ الروح والحاصل يقترب منه يبحث عليه.. لكنَّه إختفى مع آخر لقاء وجبينيه. إختفى الضوء من حوله. نام عنه، وتحوَّل عنه إلى منام شجوي، زمن غير مواتي ، وأشغال فاسحة للراحة جرت موانع مُبطلة، أخذت عنه تحمل تقليب البصر، وإبتعد، وسار مع الشهب ووميض سابق على أرضه، أنشب المخالب وأراد إصابته .

رفع صدره عن ضغط ومشقة وتشددت الظروف فجعه الدهر، وتبالغ في فهم أسرار من حوله.. حفا فوق الأوراق، وتجنح على القبور، في إنتقام وخفة.. سمع نفخه.. وسعي مخضب وبطيء، أضاء فكره الغفلة مخضب عيناه بطلاء الكحل لم تقوا المغامرة.

تشجع وكان عليه ذلك، أوهام مح رقة محررة، محركة للأوجاع المحروسة، محروم عليه التكهن تهربا وليس تخوفا.

حرضه التيار وقوي في نفاذ إلى محرجات نهكت صمته وبانت على وضح. ودون ترويض ولا إيواء لمزيد من التعثر، بسط ساقيه وإتكأ حتى وقف، وما ترك للموقف إحراجًا للمزيد فسار في الأثر وفي لا وجهة تفتح الباب يتأنى ويترك للنظر، خيوط الزعامة عن ماتستر.

وجسد يحس محصور ضبط في غير دقة ومحض التعب ووهم الدخيل مقضب يحتال الوضع في فتح محدود، إرتبط نظره بالشجون الوافد وتنبه إلى إنبعاث.. الضوء من قنديل محمول باليد لا من ثبوت أو علو مكان، ورسم المد أعقبه قدر إضطرابي طاع فضوله وسار في ثقة عمياء، مُطلق العنان لأهوائه تاركا رِجليه تتحرك.

أغبر فِما شدَّ إليه، عملت عيونه بكل مكان واقفا صامتا وما أغمض له طرف، على أغلب الوقت.

وهو غارق في ثورة دم ساخنة وهِمة تحت غشاء الليل، وجهل أعز عليه، أغمد حدود نظر عن آخره وتلفت يغلق عن الأمر.

خطى أولى خطواته في أغلب الأمر قبل أن يغمد الصوت المنبعث في حذر حديدا في صدره.

صوت رجل ينبعث في الظلام، يكلِّم آخر معه.. وهَلَّ الظلام أعطى إفادة كاذبة.. أفاض في النظر حتى أفاق ما نام في عقله، وإستسلام القبور. ومن بَغتة تسلطت إلى أصوات بعيد الأثر، توغل في المجهول.

من البغي تقفى الأثر ومن الغي البقاء على الأرض، تُشعر مَد بنفاق وبلاء لا يستحسن.

أتاه صوت في حيازة أبكت الأمر، وبلبلة الأفكار بلدت ما بلغ عنه كل مبلغ، وأنهى دعوة للفريسة وإنشاء تماجد بُهتَ المنظر من حوله وموقف مَكيد الطلعة.

مع أولى بهجة الفجر وإعتلاء بهرجة ضياء خافت الأفق، وتوق إلى تيه ظل الخيال تأبطه تأججات الحسن والسيء في طريق كلها هدوء أحدث وأوقع.

تآمر الصمت وأغرق، تبعث في داخله ووثبت الأسرار على صفحة وجهه في تأييد وتنافر تأوَّه وتيه أقيم الأسوار.

إلى عنان السماء رفع جبينه حتى تشوقت كل شمس به موقف بلا تقدير. فترضى ريح محزنة تأتي على كل أشجار الغابة أعاد إليه نظره متبأسا. وتباين ظل النور في جفونه، وتباعدت في تتابع الأحداث. وألقى التبعة على بعد وتبعثر بين القبور والرماد والكثير من اليابسة.

وتبلغ حكمه إلى شعوره وإحتضن قلبه الحقيقة هناك أشياء مجهولة وهناك نوايا، أيكون متفقدا أم عازما وتناقل الإجابة الممكنة للتنقيب. وكيف تتابع الفلم للمغامرة ، وإنزلق إلى ما عليه، أم هو تقسيط أو أمان لمثقل سيحل. تثنى الشك الحديث وتجادل في نسيج لأشرعة وتجاذب جزئي الجملة في تجاسر وتجال تجاوز سُلطة المرحلة العابرة، إختلس شروق الشمس، وما أفاض على الوادي ولحق على أخر مدِّ العين، بلا ريبة تبادلا الحديث على مقربة من المكان وتفردا أو فرط بهما السير معا لا مدلولات ولا أثر، لا أفكار يرعاها، ما خطى بالداخل متحررا في حضور.

وراحت الأيام تشرق أنوارها وتغفو في زمن محدود وملاذ السالم إلى شرنقة كلما حل الظلام. وإستكتم الحسن والجمال يبحث عن خلو لمتاعه.

كل صباح تتفتح أبواب السعادة وتطال هنائه، فكان دخله لكل صباح يقر عينه، ويسد عنه الجذب والشدة، رابظ بقوة في زاوية والباب مفتوح بين يديه سبحة ، وحواليه قارورات للمسك، وأخرى لزيوت معالجة ، وورقة وحبر لا يفارقا جلوسه.

يحتكم السلة كلما أكمل كتابة ورقة رماها بها آيات قرآنية قصيرة ، كما رأته عادته، فلا يبحث عن شيء إلاَّ ووجده حوله، قارورات للماء وكوبا أبيض لكل من شاء أخذ كوب.

هذا الصباح لم يقف أمامه أحد ولا بالطريق البري أمامه. وإنعكس الظل والواقع السائر في حقه، وإنتصف النهار وإنتصبت الشمس بالسماء، ورأت عيونه على غير العادة جسد بعرض من كل شيء أمامه، أرسل في السير حتى دخل.

لم يعرف نحوه الشاب رأسه ولا والاه أمرًا.. سلَّم وجلس قبالة.

هات ما عندك؟

وتقدم نحوه صاحب الأنف الطويل يتحسس مناخيره ونور يتضح مِن عيونه، أسير ظنه أخذه الشوق وكلمات صعبة النزول أو صعبة التناول.

مالك العيون القوية، الرجل المُصيب لِفوضى البوح، جثثة ضخمة ووعد بإسقاط كل ما لديه من هز حبل الحكمة لكن هندامه بثَّ به الأمان.

لم يقع عن مايحتمل بالذات و ما بداخله وماذا خلف صاحب الأنف الطويل، الآخذ في القوة لا يحسبه يشتم شيئا توضحته نظراته، عث اللحية أسمر الصبغة تركته في جرح الظنون.

مُفلج الأسنان وبين فراقها قساوة بهتتْ منظرها صبغتها صفورة منتجة لخرص أغضبت نصوعها، هو الآن بالمُنتجع وإن ترك التخمين لظنه في سياحة مفتوحة آحذة بأترابه وبينما العيون تمتلأ، تقلب عن سكب تشرق شفاهه تدر ما عندها. وبلسان قادح ينبعث من عمق الشيء يقول :

سمعت عنك الكثير عقل وحكمة وإجتمع الأمر على مرجعيتك، وعرض رأيك وبُعد نظرك، تواثبا حتى بلغ من كلامه كل مسمع، وتآلف بقلبه ما يحبو إليه وما يُطلعه:

ما أنا إلاَّ سبب والشفاء من عند الله سبحانه...

وبتهذيب دفاق رافد كل إحتمال، وتضليل وشدة وعزيمة وطيف بين يديه في رهوٍ تهرب العمر أمامه وسلب ما إكتسب من هدوء.

ماذا بك.. ما الذي أصابك؟

توقف الرجل حتى عن الهمس، وتصنت بوح العمق مخبل وفي مد العين للعين وتحت أنقاض بقايا الحديث توقف صوتٌ بداخله يسمع ببطئ ما يمنحه الأمل لكن أمره يتطلب المساعدة ورجاء أكبر إنثنى الباطل من قلب صاحبه وراح يلين الحديث يكف ويرفع حجب الضباب.

تدفق نور الشمس من كل ثقب وقبع بقاع الغرفة وإنشرح الحال بدفء نال معروف الحجة للبهجة فكانت كل كلمة تحريك للكرة بمرمى وإختلطت فيه النظرة والوفرة.

أبرقت عيونهما مرة ومرة وتلعَّب اللسان بقطع تحمل تغتنم زحف فتحات الحديث.

أو لا زلت متمانعًا للبوحِ ؟ ....

بلى.. بلى..

وأجْمع كفيْه خمسة في خمسة وأخذ راحة مجلسه مقابلا للشاب وفتح نوافذ الحديث فازدادت كمية النغم الحديث، وأظهر باطن الفحوى في أدلة مصاحبة لضربات نُسِبت للحيرة وهزات للعيون أوصلت ما يمكنه من الأمر للنفس، وتَطلَّب الأمر المساعدة ببعض الإشارات من الأصابع، فتسمَّع الصوت وإفتك ما أعمر القلب وتطبَّع الجوا رح.

نسي الرجل جِراحه وتبدأ بِما وصله من حديث الجليس:.. أسكن على بعد 10 كيلومترات من هنا. آخذ طريقي سيرا على الأقدام فكانت تحتمل كل ما يفتعل بها وأكثر فلا تكل.. لكن

وفي مُدة أمطرت السماء ووحلت الأرض، وتفقدت الطريق معالم السير ونسبت إلى أثر تركته عجلات السيارات ولأني بذاك المساء أعلم وآخذ الطريق فما تكلفت بأكثر من الإبتعاد عن المسلك إلى مسلك برصيف أكثر أمان.. ورحمة، وكان ما أردت.. سِرت طويلا أم زمن قصير، وإبتعد بالخيال والحال وكانت السيارات توفد في حركة أعطت الهج والمج.. وواصلت لكن.. وبعد حين وكأني ببركان أو مكان حرب.. أصوات وإضطراب أفشل التخمين ما أمكن أو التمييز، بدأت هزات تحطُّم وتصدُّع الأرض وإنهيار لقطع الأرض تبوح بكل شيء، وإنهار معها تقليد سَيْري وحديثي، حطَّمت الصَدمة صبري فكان هول نفسي يُقاس بصدح الهزة وفشل الأطباء في نَسب ما بي أهو مرض عضوي أم نفسي أم فزع روحي، ومرَّ الأوان أكثر من الأمر حتى لم يعد بي ما أنتظره أكثر، فجئتك والأوان فات.

أتى سَعيا للحقيقة، له الكثير من المُدخرات والكثير من الأحاديث النازفة.. وقد بدا منها خيط الحلم، زعيم متسامي عن صغائر النظرة، وإن كان مكشف لكثير من الجفا والشدة ومقاطع تغيَّبت فهجرت الأفكار مَفهومها، إلاَّ أنَّه بلطف يتلطف ليطلب المَدُّ والسَدُّ.

وتأمل الكثير من الإنتماءات وأكثرها ما توضَّح عن دنياه وترك له الأرض لإخراج أحكامه.

وصل معه الليل بالنهار، وما عبؤه قلبه.. وأبعده عن حريَّة الناس ومن حوله وعند دنياه.

هذا ما كان معك.

وها أنا على ذا الحال..

إنفرط انشغال الرجل وتآلفت لديه صُوَر واستزادت رعاها، بحث عن السعادة وإن كان مع من يُسعده وتداعبت ورقة حياته من زحف نسمات عابثة مرسومة خطوطا غطست به في بِرك هلكت إنفراده ولم تنتشله أقرب يد، وعلى عبث منح التلقائية، ولكمات خلاف التفكير.. إستمر به النهج إلى فشل وبلغ قرَّه في النفس، وتخرج شهادة أفلتت حركات وسكنات روحه، فلم يعبء بمظهره.. وسار وجلس إلى زبالة البلدية وهناك ما لم يظهر وإن هام فيما ظهر.

الكثير المعاني عن أرق الذكريات وكلما زف فكره لجَّت يده شديدة الإلحاح، وأفكاره لم تكتمل بعد.. فكان يحس بلا شيء للتفكير، ولا مدخرات حماية لديه.

وجُرح يكبوه في هوى وجحيم، وكُبُوّ دون إذن ولا آذان صناعية، فما أبقى به الحال قوة، ولا ذوق لذة.. كثير الحديث والخلاء، كثير البقاء وحيدا.. لا يهتم ولا من يهتم وشقاء في زيادة.

وجوده مُحق للحق.. وبث وشكوى لم يرحم، تنزل درجات وتغيب مفهوم الحياة لديه ومعناها.

وسارعت ترجح ميزان الغبن.. ومن الذي يدفع بالأحاديث المتطرفة، وخبيث البسمة في تفرد الظلمة ولا من يلمُ الجوانب.

أحاديث فيه تملأَّت الكأس، ورؤى خيال حلَّك الزمن القادم فما كان طبيب نفس إلاَّ زاره ولا راقيا إلاَّ تلمس حُلمه، ولا سمع أو إستزار مسامعه شاف معافي إلاَّ قَصَده.

آخر هؤلاء أنتَ.

وفي صمت مُثمر عن مجمل ما عاناه ووعاه جسده وتجلَّدت به أنفاسه وما محته روحه وباتت آياته وضاحة على سلوكه وتكيَف وأوقاته لاح به إنتهاء الذبول وكل ما خاب وغاب غريب السقط، وشظايا كينونة لغة الظن، غابت على الزمن ما أنكره، مَلك عقله وإن مزَّقه الشوك وفزع أحلامه فضَّه الفضاء وبلَّته السِنين عن رسم الطريق.

لكن الشاب الشيخ تحسَّس الغريب وشُفرة وأسرار إكتنفت الحديث، نِقط مُضمرة غير واضحة.

وإنقضى اللقاء بأعشاب مَحلية تنمو في عمق الأرض ويحتفظ بها كل بيت، كان قد وصفها له.. فلا يتأخر يوم قبل غروب الشمس بساعة، بإلقاء جذوع أعشاب خضراء في فيض بوعاء يتسع لكوب فيدفن به ما وصفه له وعلى قدر الغليان وعلى قدر تعمُّق صبغة الماء المُعتصر من العشب يصغى ما إبتغى ويخلف ما إرتبط بالماء، ويشرب كفايته.

لم تكن الوصفة الوحيدة بل تحوَّل إليه وبيده ورقة بها آيات قرآنية قصيرة وترشده محققا بأن لا تفارق كمَّثيابه وإن غيَّر كل صباح فلا تنفصل عن يمناه أبدا...

وعاد "وحيد" إلى حاله وحيدا، وقد شغله ما حمله إليه الغريب وفي حالة من الضيق إستمر تخمينه في التضخم والتكاثر، عُمقا وفي حالة رامزة إلى مُوات كلامي ومجهول إتصل باليقين وتوغل فيما لا يُمكنه البوح.

لماذا لم يتحدث عن ذلك قبل عشرة سنوات ألا يوجد آخرين مثلي ؟ أم لا يوجد أطباء... وأية قصة تظلَّل بها، وعطلَّت حياته.. أم أنَّه يُفترض عدم سيطرته على قوله.

أيَّة معلومات مُتحجرة مُتداخلة سيطرة وأحدثت الفجوة وأيَّة معبرة شقت هدوءه ورمته بزوبعة همَّلت كل حياته وإستنزفت أيامه.

كان الرجل قد وعده بمُعاودة الزيارة إليه. فكان هذا برشام أعز سؤال السائل.

وتمدَّد على فراش لا يرفعه ولا ينفضه إلاَّ إذا شاخ به الغبار وكثر حتى غيَّب لون الزخارف، فألقى به على شجيرات وتحت أشعة الشمس.

وفي يقين مُثبت أخذه خياله إلى الجسد الضخم واضمحلاله على ضوء القمر وكيف كان يسير في ثقل وإلى جانبه ضل يخرق كل نابت على الأرض أو بالصدفة يكونا مالكا لنفس الهواجس أو جذبه الاهتمام والبحث إلى هذا المكان.

وإنَّها في الحقيقة لثنائية غريبة.. وكثير ما يتحول الزائر إلى فضولي تعلق نظره بكل شيء.

لكن الرجل لم يُلق أيُّ نظر ولا تحوَّل أو خفَّ عن مراقبته...

وليكن فقد يستطع مراقبة كل ما يحلو له ودون لفت للانتباه، وأيُّ شق يمكنه إلقاء نظرة منه فيتحسَّس ولو همسًا ما يدسه له.

ترددت الكلمات والأفكار تستلُّ خيوطا للوهم وأخرى لليقين، وناف عن كل ذاك متلازما وسبَّب وفوده عليه وأنَّه مهما كان لديه من إرث تخمين ودفين بحث، فلن يُمكنه المرور إلاَّ بقنوات تُحدد أبعاد مرجعه، وعن تمسح أفكاره وإمدادات أحْيت ظنونه وتعلنُ الشكَّ وتجمهره

تطلَّع "وحيدٌ" إلى حاله، وما تربع بِهِ من غبن.. وأن طلوع أي إنسان عليه قد ينزل عن راحلته الناس إلى قطر بواطن اليأس وغاية البأس.

كل يوم تتطلع الشمس عن غروبها وتنزل عن شروقها فلا تتأخر ولا تتقدم إلاَّ بحساب وبأرض هجرها الإنسان، إلاَّ بيوت عن مد البصر ظهرت أعلامها، وجدران لصاحب محل تصليح السيارات انتهى إلى بداية الطريق الترابي الداخل للمعتبرة، التي كانت تكشف أثر بداية المسلك.

وانفطرت فوهة المدينة على خروج أسراب السيارات على طول درب تتحرك عليه آلاف العربات يوميان طريق سريع اتسع في حدود ورسمته أحواض الحشائش وأكوام التربة وأشجار تثبتت بالمكان.

بالمدينة وأين تمررت عليه الشِدَّة فباعدها بربع ساعة بالسيارة وساعة سيرا على الأقدام ترفعت أوهامه..

أرض إكتنفتها بساتين البرتقال حتى عطَّت أكبر البسط وبان من شق الأفق أسوار المدينة في صفوف لدكاكين لكل بضاعة وسلع تطلب فرصة التصريف وتخرجت خيوط دخان القهوة عن كوب في لوحة إشهارية تُعرض بالمكان، وجرت أرجل الأنفار بكل مَهب تنزع المَهابة وتمسح الوهن عن الهَمل.

وهبة الحياة للكثير غنى فاحشا وآخر تقتَّرت عليه حتى نقم وإنتعلته في أزقة رمَّدت مَمشاه وآخر سقط بما ا

إنتهى إليه همله فما إستصاغ طعما للحياة إذ لقمته الدُنيا وطرحته بالشوارع وإنْ ناهض مظهر الحفرة وثورة البحث عن الأمان للبعض إلاَّ أنَّ الأفراد إقتنعوا بالَّمَة ، فما كان هناك شاك ولا مُمدد لليد المكسورة إلاَّ ووجد واصلا أو حاملا للعبء نفخ فيه من روحه فما فصل إستقلال روحي عن إستقلال ورقي إلاَّ وحطَّ بمستقبل أفهم الضمير معنى الحياة. تحركت الإنسانية بالنفوس ورأى البعض بعضًا فتصفحت سوأت أثرت أو ألقنت شرودا.

وإذ كان بين الأسوار إنحلال وطرائف لشبان وضعوا الخطيئة منتهى، وعقد رابطة ماسكة لقيم تهاطلت عليها عروض خلعت باحثة عن إنتماء فقد تكاملت رفعة حفظ الأذواق وفِطرة حاوية حاملة لهدوء وبقاء لروح جميل الحياة.

المدينة قديمة وأرض أمَّها ومَلأها الحِراك زمن بعيدا فعاشت بها ألوان الوجوه وتراودتها الأنفار والفُرادة فتمسكت بالطلعة.

تاريخ سَميك متين، وجوف ضمَّ دنيا عرفت كل رؤى التكييف والغبن وتفتُّح الآفاق.

* * * *

وسعت الأيام في خلع ولباس راعاها لكل صباح ومساء جو وحركة، وجلس إلى مكانه وسط أفرشة وقرب جرة من طين أصفر بها ماء للسقي.

وعلى بُعد النظر ومن فتحة الشك الواسع للباب ظهر كامل السجيَّة في حركة وإتصال كان في لفِّ الجوِّ مالئا المكان سريع الحركة.. وواصل سيره حتى بلغ أمره.

ألقى السلام ودخل.

لقاه الشاب الشيخ بنظرات وجد من وجد ضائعا أو مقصودا.. أشار عليه بمكان الجلوس فجانبه، وتمتم بالفاتحة في دوام الإطلاع لإثنين فقط.

وأخذ الجرَّة ووضعها بين شفاهه فترقرق الماء بصوت من يرتوى ويتمسَّح أثره.

ماذا حصل معك؟

يبتسم الرجل صاحب العام الأول بعد الأربعين ولَقاه بعيون حضرها الكثير من البوح

لقد تابعتُ علاجك فما تأخرت عن جرعة ولا أنقصت يوما.. والبارحة فقط إنتهت الأيام وحِساب العلاج وبَعد قال وحيد فردَّ الرجل :

كما ترى قد إرتحتُ كثيرًا ومَدَّني الدواء بأفضل حال، توقف الرجلان عن الحديث وقطعا الشطر الأكبر مُرشدا بكلام المريض المعالج، فوجد فيه الرجل الهدوء وإشراقة تزعمت بِهِ .

حَمل لفة ورقٍ بين يديه في أكياس بلاستيكية سوداء وألقاها جانبا وأعاد الجرَّة مكانها، حوَّل عنَه الورقة والقلم، وكل ما وقع في شِباكه وتنظَّم بِمكان جلوسه.

هذا ولم تلطمه عيون الجالس أمامه ولا حاول شقَّ صَفوته أو إستراق بعيد تفكيره.

وتداعت نفسه وأحسَّ بالكثير من الراحة، وفمن يكتمل رسم خطوطه وحط حظوظ.

لكنَّه في نظره ذو شروق أبعد ، وما سار على ملامحه إغتصب يقينه بعالم مُنفرد أو كثير الإعتراف من الأيام فعظم ما بين يديه وبأعصاب تخيلاته... وفمن يكمل أبعادا يتحقق من بعثها قال :

ألم تسمع بأم البنات.. المرأة صاحبة البيت المهجور هنا بجانبك بالوادي..

لا.. تبعتها حيرة من يريد إكتمال نصف البدر المتفتح من الشفاه.. راسما خطوطا على علامات حواسه.

هناك عجوز ببنات أربعة تجاورك (قال الرجل) ولا تظهر إلاَّ بالليل، هذه المرأة صاحبة عِلْم مُنفرد، لها لغتها الخاصة ومُعاملة وفعل تُحقق به قُوت يومها. مُعبئة بنسيم قدرة خفية، وتداعب الكلمات فتُرينا ما يعجز عن قوله لسان، تلعب الورق ونظرات دثار من نار فما

قصدها وقصد مكانها نَفرٌ إلاَّ عرفت مَخافيه فتُخرج ما به من قصد، ويُقال كلُّ مَن قصدها ُدفن بتراب أرضها.

لسْت من يهتم للغير ولا من يلقي بالنظر على من حوله، إن كانت هذه المرأة هنا أو هناك فهي بمَحلَّ عيشها.

قال "وحيد" والرجل يقوم، وما كان من الشاب الشيخ إلاَّ التوصية بمعاودة العلاج إذ نابه المرض أو أحسَّ بمكر بمكامن النفس. كما أوصاه أنْ لا إزعاج إذا ما طلب مُساعدته فبيته بتراب المقبرة معروف.

وأخذ يتأمل ما قاله أنَّ هناك المرأة الظاهرة المرأة العجيبة ، فأخذ تفكيره نيرًا مُعوجا.. هناك مظاهر مرضية ورياء.. ألقت به بصحن أرض المقبرة.

لكنَّه توعد بإلقاء نظرة.. وتسلَّطت عليه فكرة حُب المعرفة عن ما جازف وضجَّر وخرَّب كسبه ، وتدنى وشاء ما حوله.

كانت ساعات غياب الشمس خلف الجبل وإرخاء كساء الليل وتخرَّج ما غطته الصُدفة لأمر مُوقفٍ كلَّ أمرٍ وتمسحت كل ما عليها بمَسْحات اللاشيء أو كلَّ شيء وفي عُسر تعليم أو تلميح.

وخرج عن كوخه مع إنغماس كل طيف وفي ليلة خفت ضوء ثمرها فدَارته السحاب حين وبان حينا وما يكاد ينطفئ ويُنير حتى يظهر كل مُصارح أو مجازف بالأرض.

ونالت منه حالات الهوس، وعقلية تآمرية سعت وراء كل خبث تنامى وترسَّم أمره فتبيت بالدخيل إبتعد عن الكوخ مُلتحم قميصه الأسود، وسروال أسود. فما كان لَهُ في الظلام إلاَّ عصا لوَّح بها هنا وهناك مُبعدا ما عرقله أو تلصق بهندامه.

وانحلَّ بالظلام وإنتحل كل مهووس غريب لم يعد يُفكر في العودة أو الابتعاد والعدول، بل تشدَّد وأسر حتى اعترض كل اعتبار.

وإنتهى به المكان إلى قبور ما ظنَّها يوما لموتى وتأمل عند قدميه وكان قد إبتعد كثيرا عن الكوخ وتلمَّح بروز التراب على سطح الأرض، كانت المقبرة إلى الشفرة الأخيرة من الوادي ومدَّ البصر بهذه الناحية تبيت المرأة وبناتها.

رمى نظرة مُستصوبًا مُتقصدًا أمامه وبجانبيه. ووجهتها تمرُ مِن هنا مُتحدثا لنفسه.

لكنَّه لم يقل أمرا آخر عن وجودها.. تبني بيتا ببقعة من أرض مهجورة تملكها.. والمرأة لا تظهر إلاَّ بالليل.

إلتم على كل صغيرة ومُترامية هنا وهناك.. ولا من يُدلل عليه وفي محاكي الظلمة يتسمَّع وهو لا يزال يُطل على الوادي العميق الجاف وتأمَّل الصوت، العزف على الناي أو بَحٌّ وغموض وتجمُّع أنغام تُوسَّع وتُوقع بالخلاء.

بدا الصوت بالارتفاع أو بالإندفاع وهو في الإقتراب يتدرج وباغتته روح المُجازفة فرمى في سرعة كلَّ ما حوله ولوَّح بعصاه فما ضبط ، وإجتاز الصوت علو الصدى حتى أيقن أنَّ العازف بجانبه، غمَّ حاله وتبكَّت هنا واجه روح مُغيَّبة تحركه وأمرًا يتحامل عليه لن يكون فريسة أو جثة لإنسان ضعيف سهل وقد عرف من الدنيا ما يكفيه.. تنافر وثارت نفسه، وصَوَّب من هنا.. من هنا.

وكأن الصوت يدور حوله يلفه وتفتَّح عيونه واقفا كالتمثال وقلبَ علا نبضه حتى تخرج عن صدره وهزهز هِندامه أوقف التلويح بالعصا فما بقي لديه إلاَّ عيون عطشى وصمود عطَّل حركته وما عاد كما كان فلا شك أنَّ عودته ستكون على الأعناق.

إجتاز الصمت بل عمَّته الظلمة وتمَلأ ما كان حوله توقف الصوت أو تجاوزه فتخرجت مناخيره دُخانا ولا يزال بمكانه سُدى وهملا، يصبغ من أفكاره ما يتمرر به إنحلَّ وأكوام الهجر في صور من الخيال بهالة من أصناف الظنون.

عيونه تلتقط تتلقف ما ظهر لها وطار حوله، وجرت حوله الظلمة ولم يعد يرى ما فقد. أطلال تطلُّ من كل جُحر، وخديعة أمطرته وأهدته فزعًا تداعى وعرَّاه عن ما حوله.

وضاقت به الأرض، فتحرَّك هنا وهناك ومال إلى الخلف دار حوله وعمَّق بصدر الخلاء وبجوف الظلمة، لكنْ تسرُب الصوت لا يزال يَسري حتى أصبح وصلة به تُرسل إليه، وبدر عزف هذه الليلة.

غاص قلبه وما إهتدى إليه، وتبعثر في أحاسيس مُظلمة. وما زاد عن خطوة حتى تخاطت قدماه في حفرة وإنحنى بنصف جسده في التربة.

وشَق الصوت الخيال وطفح حتى خال نفسه يصرخ ويصرخ وهو لا يزال بقلب الأرض وفي صَمت نُشر وإنطلق.

أحسَ بوخز وبرودة سائل ولكزٍ لصخور أو حجارة قضت فيه النصيب، تهامل جُروحه وقضَب الحاجبين وتحت ألوان سُود وأسرار قادت شكوكه سقط محاصرَ بما وقف عليه وفي مَعلَم بلا علم وحتى الإستشراق عليه لم يعد مُمكنا إنبعث في الخيال وفي حلكة ونسمات إقتادت هواء باردا حرص على لمسات ودغدغة وهو ينظر وفي إصرار لشجاعة أذكت شعوره وحماسته.

وفي هدوء وبين القبور وعلى شفرة الوادي تشق البصر وتفتَّحت طريق إلى كومة، وبمكان عمَّ وبالغ على النفس كل فضاء، تفرغت الظلمة على باطن دفن بالمجهول إلى العَلمٍ وظهر ما إرتاد وتأخر وتدارى الحجب، سقطت عيونه على نشوء ووجدها ما خلى الروح وحسر التذَّكر.

إستوقفه الخلاء والسُبل وبصيرة تحذِّر ما ظهر إلى ما إفترش التراب وزحف إلى آخر العِتي.. وجلس كومة سوداء لا يُنظَر لما لفه...

وتدبَّب بالتربة وتجمْهرت الصرخة في جبينها، شهوة الإطلاع وشروق الهيبة تصارعتا في رؤية غير واضحة.

وتقدَّم خطوات يشق الخيبة وأعضاء تأمره بالرجوع عن تمثال يختزن الغاية التي يسير إليها.

وفي هذا يتقدمه الحزم، متجاهلا للأحاسيس يفك العزلة ويَحيد عن جمود مثله.

وهو يقتفي خصلات الطيف ويشع ما يختزن وتقدم خطوات يتطلع كل ما وقع عليه بصره وتقدم.. حتى لم يعد ليرى بوعي خطوات فيلامس وشاحها. وشرائط الضفائر ينظر بعمق النظر فلا يظهر من الطيف إلاّ خبر ماض.

لا أثر ولا عثر، وقصد المكان إلى أوسعه فلا منشأ للظن بل تهيأ فكره لشرائط الشك.

ظلمة تخلف أطيافا ومكان يظهر ما ورد ورفس يُسربل بالدم أوغل متوسما مخرجا وتأويلا لأفكاره صعب الإرضاء.

تحجَّج وتصاحب بما يهيج ويفتح على وجهات تزحلف وتَمد الأوجاع.

تولته ما وجد من بعث المفاجأة، وخاب قران الأفعال من الصعب التصديق ومن الصعب التكذيب لقد رآها بما يسقط توابع الأسرار.

ومَدَّ القرابة بين ما كان وهام فيه فركب الحاصل بِما ورد من توسع أراده. تخفت في جوف الظلام وتعجَّل تربة الوادي، نظر إلى عمق شق التربة حتى توضح ساقية مارة بوسطه في جوفها خيوط الماء.. وصخور لبقايا جبل تهاوت عنه منحوتاته فتنزلت جيوشا جرارة من أثقال المُنحدر ولا تزال أطياف النسيم البارد تتكاثف وتتسع وتضخم حتى تمازجت والظلام برودة تشَاكل لها الحلف والأنف .

فأرسل اكْرستال في خيوط لامعة تضغط على مَناخيره بِسبابة وإبهام فشفى مما إعتلَّ وأخذ مِنديله ينظف ما تخلف.

جسد وهمي تنقل صِفات البشر وتثاقل وهو لا يزال واقفا وكيف له بإهمال تفاصيل الإنسان وقد أنام البدر تفاصيلها، فلم يكن لرجل بل لإمرأة، وتباطأت حيويته تنثر أسرارًا شاركت في مَسِّ حِرفية التخيل والتوقع.

ماهرة هي في إختيار المكان وفي التعجل في الإختفاء... تخفت في جوف الظلام، وهو يُقَلب بالمكان وقع على ما أثقل تَشَوَّقه وتدرَّج يصل إلى أعلى في خط تواصل وعمق الوادي، هي أوَّل إلقاءاته ولقاءاه بهذا المكان وفي برودة اليقين تشافه داخله

أتكون قد نزلت من هنا...

لكن ظنونه راحت تُطالب بالأكثر، لتبدع الصفات ولذة تحترف وتبدع وسع ما يحمل أكثر قذف

لكنَّها كانت هنا تحت هذه السماء وغادرت كما يغادر هو هذا الحين.

* * * *

هو يوم مناسب للقيام ببعض الأثمار، كما يُمكنه التغيير في بعض الأنظم.

ومِن زيارة لبعض البقالات والمحلات ودور عرض للبضاعة وسلعة رائجة إلى رغبة في إنفاق الكثير من الوقت في سَدِّ حاجاته.... هذا وكل حركة تقرع الحيرة، وأعصاب في عُجالة تريد المعرفة.. يُحاول مُقاومتها بهذا أو ذاك. وفي كل كابح لكل ما يمكنه إلحاق الإساءة به.

يحاول العزلة وقضاء بعض الوقت بمفرده يريد فرصة لزيارة بيت المغامرة(بيت المرأة) ولديه الكثير من الأفكار التي تجلب له الكثير من التخمينات ، وعلَّه تفحَّص وتدمَّج في مطلوبه حتى تفاجأت نفسه. فنفذت قادرة على إفتكاك المشهد منه.

لكن لا من يرخي المتعلق ويوقف تمويل الشكوك، إلاَّ ما يُسبب الشُتات ويكسب الأمر فزعا.

وإستغلَّ ما معه من وقت في حلِّ بعض العصيان والإنتقال في فرصة مُتاحة في الأعمال لإحراز بعض الإحساس بالحياة المُنظمة وفد يواجه الكثير من الخسارة إذا ما سكبت السحاب فيضها وتخلت عن ما تخزنه .

وقد يُصادف الكثير مِمن لا يرغب فيه والكثير من الغير مُوثوق فيهم، فلا يمكنه الرد عن الأذى إذ لم يكن أحرز المخاطر.

وتحذر من جُرح الغريب ومِما يتداول على مجلسه فلا يُمكنه قراءة الطالع داخل النفوس.

تخلَّص مِن الكثير من الأواني والأشياء القديمة البالية المفتقة التي لم تعد عليه بحاجة. تغيَّر المكان من حول الكوخ وتراجعت همجية إلى تنظيم بارع أذكى النظر.

لكنَّه توقف لحظة وقفت على عتبة بابه ولا يزال بالداخل . سيداتان تتملاَن الخلاء في أوشحة سود متحجباتان مُنتعلتان في حزم من يسير إلى بعيد.

جلس دون إلقاء نظرة ولا مُتفحصا لوجوه فكان إذا أخذ مَجلسا لا يرفع عنه لمسا إلاَّ وهو يقول مع السلامة، وراح بأدميتِه ومعرفته الإنسانية والمخبرية يُلقي الأسئلة وهي ترد.

وفي دوره على كليهما يضع القرطاس ليناول كل يد ما دل به لسانه وفكره وكُتبه وريشته.

حبره دواء ومعرفة يسعى إليها صاحب النغمة والمحتاج علمٌ على كل شيء لما يكون وإتصال بالدواء الشافي.

إتصل بالناس وإشتاق من الهموم العلاج ففي كل لقاء يلقي من الحكمة والإنصاف ما يلبس رداء الشفاء ويتمنّح القرارة.

وفي معرض هذا مقبل والآخر على أعقابه مائل عنى بكل من يقصده وزَيَنَته الرحمة والبسمة في أمره.

ولم يترك الوِحدة ولا الضياع ولا تقوّل الفكر ولا رجَات الرعب يستوقفه لأنّ طريقه أفضل للمجد والشهرة وإن داسته الأيام في طريق البداية فمن أين له بخط النهاية.

وفي مظهر لا يملك إلاَّ هوس الحاصل وحركة الفرد الساعي في العيش وفي تقتير للزمن وقف أمام الكوخ وإختار ما يريده نظره متأملا في البعيد، وفي إندفاع على مد لا يكاد يتبين هذا عن ذاك، تزاحم أناس وأصوات التهليل والتكبير، وضوضاء سيارات، ووقع أقدام ومرآى أرجل تتحذر القبور وألواح الشواهد.

الخشوع يعنّف ويردد في حرارة إنسان غارب عن الدنيا ومَحمل على الأعناق يتقدم.

كان الأفضل له الوقوف أكثر، والصمت كثيرا والنظر أكثر ماذا لو كان بمكان ليس للسير وعلية إتباع السائرين ولا للتحنن ولا للإستغفار، ولا للوم الحياة المانحة والجاحدة، بل من ترفعه المعاتق وتقوده إلى مأوى.

يسعى للإطلاع أكثر على الإنسان الرهيب بالداخل وجديَّة الفهم بين السائر والمحمول أو ليسوا سواء. والدور على كل واحدٍ .

ماذا وهو العائش بالعزلة وبين العزل، الغارق في التربة وأكوام العشب، من تداهمه كل ما تخرجت به السماء والأرض، فما يتأمَّل وهو المتأمل للأمل.

دواخله تصرخ وضاقت به الذكرى، ومرسال الأفكار وترصَّد لِمَدٍ قلبَ عليه ضُروبًا كان قد برء منها وتعافى، وتسربت برودة في وضح وفي حرارة للشمس مرسالة.

غاص قلبه وقبله فكره بها وسبحت حواسه من لم يهتد لِما قُلب إليه.

ماذا بالغد أوماذا ينتظره ؟ ينظر نظرة الجاهل بالأمر. ماذا عن ما يتخفى له بكل ليل ويلبسه كل صبح. وقبع به جليد في ظلمة وحُفر فقعت دنياه. وعادت لتضيق به وعليه.

تشعَّر بالحيرة حوله وهو يلم ويلتئمن وحرية تطبق ظلمة الجهل.. وإطلاق لا نسبية فيه.

وترفع الستر عن تحجج أباح الشاذ وإنعطف على مسارح مُحاطة بالبلاء ودوام الحيرة.

وتسبح لسانه بها ظل المعاني وأسى أنساه ضُعفه وأرغمه الشدة والتصبر.

حيا بعد ثوان وتمزق الشرنق حتى تخرج عن لا أحد بالمكان فكان الإنسان الأخير يخطو خطوات على عتبة باب المقبرة حتى رسى على المُحال لقد تدارى الحي الميت وكادت الروح لبُكرتها.

وقد تعلَّم أنَّ الإنسان بداخله هو الذي ينام إلى جانبه وكان لا يكره أنْ يقال له أنت حي وآت لهذا الدور كلما تشعرك الحين.

تحبط مسعاه وخاب في مِسك بخناق. وسارى مسرى طافح من ثقب مسدود، ومِضخة تدفع ما إكتظ من مكتوم الحقد والأوهام.

وفي أفق مكشوف ومرسى الريح، وقف، ورحلة عيونه غير مكلفة بشأن.

وفي إرتفاع صوت مَكنَّه طِباعة الصوت الموازن والمكايل وشيء جدير بالمُراجعة.

تراجع وتلقف الكوخ تَمهل وتلاطف حتى أتى على ولد مَّتملق في سيره. يُلوِّح من بعيد وفي ضجة مُلحاحة يحاول الإلتحاق به لكنه يتراجع من أولى الخطوات لكنه غاب وإستراح كما يستريح الملح في الماء.

لا مكان للوجه الملفوف والأيدي المُلَوِحَة أم كان وهم أنتظره حتى يغيب الناس عن الساحة.

ودخل العُسر والقهر دواخله، في فرض مليء بالعجب وأرض بها ظلمة الحق، زرعت آماله في كل مكان وأسراب هواجس تحمل ما تنسمت به القبور، وصُور همة تحوكه ، ونشأ الغير بارز للوجود عن بذل وتنافر ذو فقد نشاز، أخذ نتوءه.

عاد إلى الكوخ في شق لطريق مُتعب وتبلَّع نشف الريق عن شفاهه.

جلس يتحسس جراحه فتارة يرفع رأسه إلى الزرقة وأخرى إلى ما قرَّ به من تربة.

نَصَّب نفسه حَكما لِما ضرب حوله، ونصيب من تركة الموتى يرسم أحداث يومه، ونصعت الجهالة حوله حتى تنصف قطرها.

لكنَّه لا يزال بطل ونصير للضعفاء ولا تزال نصائح أبويه تحملها أذنيه، ليس له نصيب في همٍ . ولكنّه سدّد ما عليه وإنتصر لحقه.

إختلس النظر من حوله بعيدا.. فرآه ينظره ويطلّ عليه عن كثب.

ووقف عن التحول عيونه، مُستصوبا متقصدا ونفث دخانا سقم حلقه وتسامى في سُعال نفخة من نار وقرع على أصابع يمناه، شادا على حزمة أزهار أرّجت النفح.

وكشف الحال على وافد ليس بالغريب في مشيته حمالا على المشاكسة والنعمة ميال إلى إيقاع نقار على الهواء ومن صورة واهنة وشيء ضعف الملمح النفط توضحه ومن تعذر إلى نقطة إلتقاط عرف وجهه.

بان الرجل على ضوء الشمس وتعلَّم في تلاق للوجهين واقفا أمامه مُلقيا السلام في هدوء أنقع طيبتة وتحوّل إليه بكامله مُسائلا عن ما كان معه، وفمن يعيد حكم التفكير عن أنقاظ أنساه الدنيا.

أو لا زلت على راحة بالمكان؟ .

الحمد لله.

مُوسعا النظر في براعة من يختار المشهد الملهم أو المخرج الحديث من أغوار، يتعاطى الكلام في نكهة.

لا أجمل المكان هنا وأجمل من الجمال إذا ما توسع النطاف في غير سلطة، ولم يتنكر للنعيم.

وفي نعومة ردَّ أو في منتهى التنعم ودافعًا للدماثة ومن وجد نده وصنوة لِما ندى الجبين.

بالطبع أنا إخترته لكن ماذا تريد ؟ قال وحيد

نخر الدود الخشب وقامت الديدان بما تجاوز فِعل إنسان .

ونفث في الهواء في نداء لا مرأى لا مثيل لا بديل ولا محرر للنداء ، سمعه ورآه وعلق على كلامه الرجل النداف أينذره أم يخبره أم يلقي نظره على تجديف راهب يرد عنه قادم وتمسّح كفوفه وفي عماد ووقفة غلى جانبه يرد إليه النظر...

ما قصدك بماذا تريد؟.

وفي نزوة جرح تطرح حمورة ولعاب أحمر، عاد إلى ذاته نازل للحق ونزاح إلى الرأفة أوجز..قال وحيد فرد الرجل :

إنَّك تحيا على رواسب الأحياء وتهبط بأرض نزلت بها مختلف النوازع، ونضبت بخفايا نزوق لِما ترويه ألسن الناس وقد رأيتك ضيفا بالمنزل ورجل ذو إعجاب ونجاح عزا عند آخر. لما رأيته من أعمالك، حائك للعلاج شريف فقدَّرت مكانتك.

وفي حديث مُختلف نسجه الخيال ونسَّق مِشكاك حفاه بمشاهد ما حوله.

كبر رسْم الخيال به في هنيَّة وصُور تستنسخ دواخله ونسب كل شيء إليه... وعاد ليرى وحيد :

ماذا أريد من الدنيا وماذا أرعى غير حياتي وإذا كان الدم يسير نزل اللؤلؤ في العروق فأنا لم أكن نزيل فندق أو عمارة أو شقة فهذا مأوايا وبه أترفَّع عن كل طلب.. وعلى كلام كل زائر.

فشله وسوء حظّه عثَّر تفرَده وتخلى عن شجرة النسب وعن غصنها وليس له هم، وقد إستنزفته الحياة اليومية ونجا من البؤس على شاطئ تجربة لا يزال منها الكثير، لكنه لن يعود إلى نتانه أو حظيرة أشعرته بمرط ساعاته.

وتغيَّر إليه وهو ينتف حاجبيه وتنبه إلى الأمر:

لن أغادر مكاني هذا

قالها وبَه نبضٌ بطيء يُغيِّر نبرات العرق ويقطع أخذه في التلفظ، وفي صوت يُخفيه كلما إبتعد غنه الرجل قدمًا حتى رحل مُبلغا بالسلام.

ولأنّ الحديث مُضمر فقد كان مُقدر له الشقاء. ومن القرف أن يجذف خلاف الحياة المكتوبة عليه .

ولا شيء أقرف من زيارة قلب مقروح، وإثارة الثورة عليه دون مفوِّض. كان الحديث على قلتِه مُوسع بعيد المرامي، إلتحق بكل معنى . تمدُّد على مَرقده مُوصلا بالسقف المركّب من بقايا صفائح مُرفق ببقايا مروِّج مرساة على كل خُردة.

مدفن بالحياة مخذول نخر الشقاء في مختلف ساعات النهار يختفي في ألوان الأحاديث، ليس مَحْضُ الحقيقة. وراح نحو المؤامرة المُحَرضَّة والمُحتَّمة والتي لا مناص منها ، وإستسلم للمقدَّر مُحتجز التفكير مُرتهن . يتوسَّد سواعده يتوقب غالب الظن بارده وألمه غير مستبعد وغير مرجّح لكنَّه يحتمل كل شيء، محتد مًا الأفكار.

داخله مَثار نزاع وجدل وظاهر أعلى الصلح والكمال تبرَّأ من الخارج وركب مَوجة مُوحشة لصفوف الأفكار وعيون ُمتوقدة، َمنهوك الذهن بعواطف مُتنافرة وفجأة فاجأه أحدهم و

تحسَّس شَعره المنقوش، وتجاوز وجوده، وفي متن الأفكار وغيمة جسد وقف في فتحة الباب إنقلب إليه في سرعة متناسبة وإحساسه متنزلا بسمة ، متنوع الحركة وأبعد كل ما كان في متناوله.

متمتما: تقدم...؟

أخذ الساعي مكانه متقوّس الساق ثابت النظرات ثاقبها وبنيران عدة كلمات كان متكلما في الموضوع.

إحتضنت يده كفَّ الرجل وتشاسعت عيونه تلقي النظر، وفي غاية الصمت يقوده حذر وتمعنٍ راح يهمس له بما أصاب من الصور.

طلعت الصور في باله وراح يجسر الجفاء ممزقا ثياب الرياء ويدحض ما نهض في عيونه من شك وما إنهال عليه من مبهم.

وبرهيب الإحساس داوم رسم صور الثورة والليل الضارب بأحدى جوانبه وكان الرجل بين الحين والحين يهز رأسه وأخرى يهمس بشفاهه فتضيق عيونه وتنفجر كمن يعوض الصمت. أو ينتظر ما يُطلعه لسانه.

وراح بلا حدود يُملي عليه ما قرأه بخطوط واخضضاب يمناه، ويقف أمام كل وهم وسقم أو صغر مخيَل وإختلطت المشاعر بضوء الخبرة فباد عفس الدنيا على حال الهول ومقفل الخط دون ترخيص يلفق خيوط لا مبدأ لفكّها.

وسار في التيه ودق أبواب الخير والشر وذبل تورد نظره وغص . وإستفحل كلام وإختار آخر...

وإختلط الشعير والقمح فما إقتاد إلى أبيض من أسود إلاَّ بقول من الشيخ الشاب"وحيد"

هذا الطالع معك. أرح نفسك وإهتم كثيرا لحالك قال للرجل ومافيك مِن العين هودفق الجو فقط، فعظم عظيم وقد نجا وإكتسب راحة، وهوى قليله حتى كفا كسبه كامل ملامحه وألقى في حضنه وهو راكع أمامه ورقة نقدية ووقف مغادرا ملقيا بالسلام حوله.

عمد الشاب للورقة فوجدها بالعملة الصعبة أخذها بين يمناه ويسراه وتفحصها في أقرب قبض لضوء وثقب لابأس بقطرة يطرح شعاع الشمس.

وإزداد كل عدد الشكوك ، والهمس والظنون وإستزادت الشمس بهرجة للورقة العُملة.

ورقة نقدية سليمة إنه الأوروا ..

طوى العملة، ووضعها في جيب سترته وهمَّ بالوقوف علَّه يُقيم لحطام ساقيه إستقامة.

وإحتوى المُصادفة إذ وضع كفيه على التراب فما وقف حتى تشعَّر الواقفة أمامه، إمرأة بحجاب أسود ووشاح من نفس اللون ونقاب فما ظهر منها كفى تبيان لملامحها أكانت إمرأة أم لجسد إمرأة تنتحل.

جلست وإعتدل هو .

سألها وهول يهوى بعيونه إلى الأرض ويفتح الكتاب في سورة "ياسين" وعلى همَة كانت تجيب فتجعله ينتقل في المُسائلة...

لم ترفع المرأة عيونها عن عيونه ولم تَبح بكل ما معها، مُكثرة التحديق شادة بخناق وزحم ومن يأس عن يأس تلقي عتيد الحديث.. تشكو مَن جَفا من حولها وعن زيارة لغرباء لأرضها، تكفكف حديثها بأحاديث أشلاء وكبرياء يحمل كلامها فشلها ويتملأ دروب الشوق تجري حولها أشواك، ونار تجري في حدقتيها، فيتشعَّر حرارة تُلقي عليه اللفح.

لكن ما رسب بداخله تاه في التقدير وتصدَّر ما أمسى بِها مِنْ معدن وبدت كأنَّها ضحيَّة.

وتوقف في ثنايا حديثها وفؤاد بين الأضلع يتكسر ينحني يلقي الشظظ وحمم قرعت حرارة لا تستحمل وصب حلو التكهن يتعهد الروح بالصمود.. وراح يذيب بلاءها وما سار عليه من مأثرة وناولها ورقة تحمل علاجها فغادرت .

قلبه لا يزال يئن وكمل من الوخز ما إنفجر حُموره لطخة معالمه.

وفي غفلة، سلبته صرخات خانت صمته.

لكنَّه مرهق وبه تعب أسقطه من محمله فحمله فراش صفتِ غالبية الأيام والأوقات.

نام وتاه في النوم، وترك الباب مفتوحا، وما إحتاج إلى غلبة النعاس ولا إلى قهر الجفا يمد في السبات بل ما إن ألقي رأسه على الوسادة حتى طلعت صور المنام الأول في وصف ذكريات مرت عليه فِما مضى وهذا الصباح، ولادة قصرت منه المشقة، وتسربت روحه تنتمي إلى عالم مجهول توقع الصفوة فيه، وشق أبعاد الروح يبحث هنا الأمان.

* * * *

يجلس "وحيدا" تقوده أحلامه وشرائط لصوّر كانت له من الماضي يطلع في مأمن عن ما يُشغله وينفث فيه القلق يحتاج لأكثر من الراحة.

وإختلط ما إختلف تفسيره، لكن فكرة إختمرت بداخله وإختلست هدوءه سار بخطر تنظر مسارح الصباح ماذا لو كانت على الحياة وماذا لو جهلها الموت حين غزته إكراما له، هَمَّ بالمواصلة وتوقف يأخذ مجلسه إلى أقرب بروز لصخرة على الأرض، وأخذ بمجامع قميصه حتى إلتصق بصدره.

إختنق من الغيظ وإن شدة النسمات ضحكاتها فأفضلت من حوله من شجَّ عليه نفعها.

خجلت عيونه أمام حاله وإختار محل جلوسه ليعيد صورها وراح مع أخاديدها وحفر نظراتها. إختلست شفتاه بسمة تشعرت نسيما تأثر بضياء سريع الهمس.

وبلغ به الأمل متلبس الفؤاد ووفاء العهد تاركا خلفه بريقا تداهم أعمى عليه جلاء الصُور.

وسار والظلام يجوب المكان. نفذ إلى كل ما وجد وزحم به وكل ما أنكره إنسان. يؤم ويقبل حتى جمع مجامع المقبرة المعمورة.

وفي خطوات من صنع مكامن الخبر ومقصد للمكان يثار منقلب البحث والوجهة.

وراح "وحيدا "عن الحجر الجائر تمر وعن الحفر والسواقي المتقطعة يجر القدمان. تناولته الهموم ينظر بلا موعد في لغز وتحليلات بين معركة الناظر والجاهل.

وظنون كلها صُوَر تعود إلى ما لديه من مستحضر اللحظات وما معه من تبعة على المكان.

وقف على شفا الوادي وكان الظلام أكثر الحلكة يأخذ من قلبه الزاد وبين المسافة بين الواقع والخيال ينمو النادر من الأفكار.

وتجَمَّعت مآلمه و إرادة تاقت به و سار في مُقبل الطريق و تغيَّر ما حوله و حفظ إستظهار المكان و أخذه الإهتمام بما تفرق بداخله وإعترى هويته. ليتخطى العذر ولسع صعوبة الخيال في غمرة شتوية الروح وسقيم وغيوم لكشف لم يُلحن.

وفي طالع المكان وقف في ظل التخمين وتجاذب إمارة أدرجت العمر في واد فقع الحصن.

قدماه جلبتاه ولون الظلمة فكك وعده حاربته أنهار الأفكار وانتظار يحط للغدر.

وراح يُساير حوافي ومنفى يبحث منفذا للأمل أراد العودة عن ما معه. وأفضل له البقاء على توقعه مِن أن يلحق أسى ومآسي أو يدور في الفراغ على مالا يمكن بمكان.

غير أنَّه أصيب بسهم مدعوما برأي الخيال ما شق ظنَّه. توعد بالمداهمة وتوعد النظرة الإستقلالية. وطغى عليه الهول وسيطر، ماحاجته لصورة إنسان إن لم ستر حاجته ونكر إلحاح مطالبه.

وقفز لبلوغ أولى الدرج. وإحترام الطبقات يستشعر الدور القادم. ونزل على فيض ضوء خافت في تخف للصوت وصمت لحذاء عدَّل قوته ورويّة في النفس صدى هيبة. بذل أبعد إتصاف. وإحتقن بأصل تجلُّد حرق عيونه بالنظر يرى الظرف الجاهز.

ووصل إلى منعطف لدرج ينحدر في زاوية وتَحوَّل إلى ضده منغمس في لحظات الغيبة. وعواصف للتحدي تُرابض وتُدَافع بغير رضى.

تحوَّلت النبضات إلى قدميه ، و لبس شفوف الداكن ولا يزال يحث و يواصل حتى وقف على آخر درجة ولا عجب في أنَّها كانت نهاية لبداية عمق الوادي. وقف في بطن الأرض ورفع رأسه إلى الأعلى متسلقا البرج مُعيدا النظرللطريق . حياة مظلمة وقاع بئر مُظلم لا أمان للمكان ولا إنتماء.

نشط الإقتحام نبض قلبه وثار حُمورة و ألوان لا ترقى إلى مثال ، تكحَّل وتكدَّح وحار من العقبة.

أي طريق يأخذه قُلبَ و إنقلب وشاذ في غمرة المُحجم أكبر من الظاهر و الغرور مأخذ البطش صورة الشمس التي لاتنسى حقيقتها وتخسر صواب الفهم.

بحجر الأرض يباطئ ويحجم. علق حذاءه بالوحل فتنفض. وأشرق وجهه غرة. يتكلم لنفسه مهوسا ونجوم تهدي ظالته. وتخرج من عتامة يهتدي بقداحة خافت ضوءها لا يكاد يتدبر ولا ينتبه إلاَّ بكسب جمع معه الخيال ولاحت أمامه ثقب بجدران الوادي الأيمن وظلمة تترآى كلما إهتز الخشب. وأغصان هزيلة يحملها لهث الريح. فتنحرف هابطة وعالية تحوَّل في عزم إذ وضع نظره على ما رأى.

كأنةَّ القط في الحذر، و الخشوع إذا وقف أمام الخالق وزادت الخبايا وتفقهه الظهور يقف على السطح يتدبّر ويتقصد ينظر بعمق النظر مجرى الضوء وراء الحفرة حتى علَّمها.

وإهتم بالكيان في إنقياد آنس قلبه وقدرة وسَّعت خاطره وعاطفة تحطمت بِهِ .

ينحنى رأسه بقرب المرآى وإقترب أكثر من الفوهة و في صولة وجولة لا يقدِّر لها فعل إنهارت الجدارة أمامه وسع نظره عن ما رآى أكبر مغارة على وجه المعمورة أو ما رأت عينه منذ الولادة.

جدار عملاق في الأجواء يهوى وتظهر الصُور المكملة تنظر خلف التشييد.

مكان إمتلك الحياة وبلاط مُحرر لعيش بأمل المستنجد أوقف تشغيل عيونه وبإرتياب وبِريْب لم يعهده طريق تحسَّس ريح خفيفة شديدة عاتية ، وتقلَّب بكل برودة وقرَّب رأسه يتفقد وسار في الهوى.

هل كان في وعيه أم قصة يرصد ريعها لثروته الإكتشافية.

أمام بركان العين وركام التربة و الوحل وحصى زيح اللثام ليستزيد المستاء إساءة في الظلام ظهر زيغ وحركة وإستشعار مازاد الحاجة للنهوض وأصوات زافرة فتلونت بشرته بألوان عامقة زاهرة وزادت تسعيرة الخدود. وتراجع في سرعة هاربا لكنَّه وقف وإستمع الصوت خلفه. أن توقف.. توقف.

لم يتوقف ليس بسبب بلوغه لعتو أو حاجز، ولا من إرادة إتسعت و ألحّت عليه وإنَّما زيغ من هدف لعيار أو سطو وخديعة توقف لأنَّه بأرض ليست لأحد.

وزاغ البصر في خيوط غيض بيضاء زاهد حتى إلتفت بمجمعه ووقف واجدا فرائسه وجها لوجه ومتسع السجناء وتفتحت زاوية إبصاره غير متعهد بالرؤية وأوقف حركته متواجها متصفحا وقد أنبرت الشموع بأمكنة أحكمت توضيح الأركان فرسم محل كل شيء و في زحام المفاجئة و إصطدام بما حملت الأرض وصرخت بأن زرع الدنيا متسبب في مظهر رث مزري لعائلة. تزعمها ما أوجب زم الشفاه.

إزدردَّ ريقه، يريد بلعه .

ظهرت العجوز بين أربعة أولاد، وتبينت الفتاة من الذكور فكانت نقص من زيادة في الزرع، وإقترب في زيارته للمكان المقصود أكثر من اللازم.

حتى وقف على إنزياح اللون بحجم علمَه الوعي أخذت العجوز جرة بها ماء زُلال تروي ما حرق حلقها، وعلَّها تزحلقت بقدر ما زلزلت تحتها الأرض فتحت شفافها تريد قولا وإستغفرت من زلل، ربما لم تجد الزمن ولا المكان المناسبين.

قالت: هذا زماننا ولكم زمانكم.

قُبض الشيخ الشاب بتسليم الأمر وألقى زمامه إلى ما يأتيه من حديث، فرفض وقابلها وهي تجتمع إلى أولادها هذا يشد ذاك يلعب .. وهي في ثوبها الأسود على ضوء شموع تراقص خيوط الضوء.

أنت التي كنت تجلسين على شفا الوادي ليلة البارحة...

وما شأنك..؟

لا شأن لي ، أحسُّ بمجاهل الأسئلة وأنّ المحاولة فقط قد تلقي به بعيدا، وحاول التليُّن والتحنُّن في زهادة كلام وضغط على زناد الراحة.

كيف الحال (مزدوج الحديث) هل لك ولأبنائك بالراحة الكاملة " وشحذ ذهنه " ولو القليل منها بالطبع

ردت لا قليلة ولا كثيرة، لا في القِدَم ولا على الجِدَّة...

وكأنَّها تقول وأين يُزرع الزهر أبهذا المكان أببقايا الزبالة ونتانة بأنين التيه وزهد لا نظير؟.

ويتابع وقد أخذت إلتواء لا أمر على تبيان رأسه يلتمس عطفات إلحاح العين ، قَّلب المكان بملء القلب يَروم أصم أخذا مَنثور الرأي وركيزة النصيحة أشهادا على ما يرى. لا ينتخب ولا يصغي، وبلا رأفة سار فيما إلتهم إهتمامه وفي حِمم حرجة ألجأ روحه إلى تنصيب الرغبة في الإطلاع.

وإلتقط أوراقا ذابلة مُعدمة، تشدَّدت إلاهة الروح منعًا للشك وإلتآم الألم.

لاحت عيونه في الأفق وتمزز دون إلتحاق لكلمات...

وراح يُجازف في رفض وكسر ما لا يحتمل أكثر...

تجانب ماكان بنفسه وحديث آكل للفؤاد.

لم أتفاجأ من قبل كما أنا الآن، ولم أرى ما أرى مُسبقا حتى في التلفاز، ساعةَ كان لي تلفاز.. أو في الدهر وبهذا المكان من يشرب من ماء التربة والرمل ويأكل من كنفه ولا يرى حقا وهو هنا بوطنه فالحُب حق ليس طاهرٍ .

توقف وكأنَّه لم يجد كفايته ولا يستطيع رأب وفد الظلم سألها:

أولم تشتكي ألم تتأكدي من نُصرتك.

فقالت: كم من باب.. أصحابه إمَّا مشغولين أو غير موجودين.

لا من يحقق الرغائب، كل يُكلمك رغم عنك ورفات جثمان لا حاجة لوخزها.

ورفرف وطواط في رفش التربة مُجرف لصوت لا رغبة في رؤياه.. لا راعيا لا مناصر، إنَّه شرط الأقوى على الضعيف والبصير على الأعمى: ما جدوى تمتعك بالشمس في الصباح وفي المساء تنام بالقبر... وهي تلوح بيدها:

لا أرتكب رعونة وليست بي إنتفاضة لا خوف من أحد ولكن القلب معلول، رعته وحشة.

ورطوبة وروائح لمستنقع وهواء ترعاها حمى، وعشب لا ترعى فيه ماشية، لا رعاية لحياة البشر.

وراحت تتحسس رطب يديها وضعفها.

وتنهدت تتشعر ما بالعمق عن رضى أو نكران لا بوح للأفكار شدت بخمسة أصابع يمناها وجبينها، وطبعته بنظراتها.

ثلاثة خرجات في اليوم. في الصباح وفي منتصف النهار وبالأمسية من كل يوم، أجلس إلى الرصيف أو على رصيف المقهى، إذ لم تكفِ النقود التي معي أبحث عن مكان آخر أحمل منه ما أريد وأكفَّ حاجتي. وأغلبه أختار رصيف الركوب أو محطات سكة الحديد.

رضخ للحال في إذعان، إمرأة رَضيَّة النفس في مدينة هواءها ساخن وأناس يعيد نزول الوادي بنظره ، القوة للمال والتسويَّة لا شأن لها هنا. بمكان به يحيا إثنان متضادان واصفا بذلك حياة القط والفأر وإحتياط الغذاء أسرع سيلان اللعاب.

سعت عيونه وراء الظلام وتصفح ما لم يتوقعه وفي خير نيَّة مَيَّز بين الآدمي والجثمان.

خياله لا شك فيه ولا خلط بين الأمور في دحض من العجلة الخير بين الشيئين لا إختيار فيه.

والأسرار قطعت أمسَّ الحاجة... ودار دائرة في صراع مع دواخله، لا ينقصه التبصُّر لإلقاء ما يخطر ببال الأولاد.... أربعتهم لا من يستصوب خطأ أعمارهم ولا بطيف هفوة:

وقف بمكانه وألقى نظرة على المغارة، وقال:

ليس عيب الزمان ولا عيب الأيام وإنَّما هو عيب الإنسان.

الفوهة على طول وعرض من الوادي و الإعتقاد بوجود الحياة بها قد تصنع التوحش وقرأ العيون.. لا علامة ولا خط إلاَّ من نار. وأمام الفوهة تمتدُّ ساقية الماء... لكن المكان لا يبالي فقد علاَ السيلان.

وإذا كانت الدفعات على ما لا يخطر على بال...

لم يحصل ذلك وإن حصل فلم يسبق لي أن عِشته وخطف طيف مبغى الحديث.

وهذا أفضل ما كان لنا مع هذا الوادي .

لم يستزد عن السؤال وعن ما إذا حلَّت المفاجأة لكنَّه علَّق الإجابة على المجهول وإن كان كل شيء أمام العيون.

وإن كان الكلام أمام الأولاد، يتفتح على كل رحب. إلاَّ أنَّ لا أحد منهم تكلم على لسانه أمام عرشها بل تحمَّلت وحملت وإن أضلَّت لقتْ ضالتها حولها.

ألم تتعرضي للخطر بمنجاتك؟ .

ما كان من الحيوان، لكن من الناس فلاَ.. وتبسَّمت ومن ذا ليقترب من منزل الوَحشة.

كانت أحاديث وأحاديث تتخطَّط حولها تتقصَدها ولكن في إختلاق ما خطر، وإن كان دون الثبات، لكنَّها المرأة الجبَّارة دون إبهام.

وتشدَّد في جذب حاجبيه ، وكمن خطف مقاومتها أراد الشحذ من صلابتها، مُعرضا نفسه للإقصاء:

ومن يقترب منكِ.

إنَّكِ لا خطم أسد..

أو يجب

وتحاث على الكلام:

أي نعم؟

لا خطر إذا لم يكن من أيدي بشر.

كانت تتكلم وتتوقف كمن تحرقت بما لحق بها أو أنَّها تريد الإبتعاد عن لعبته، إنَّه خطب وقدر يقيس الخطى ببطئ نحوها. لا حقيقة بينهما لكنَّه أراد إعادة سؤاله ما سبق عليها، واعتدل، فمن تحيا بحجر أفعى وبمنعطف سيلان المد ولم يجرفها ما حضر، لن تعاني

خطورة موقف ولن تغفر ألم الجرح، إنَّ أمرها لذو خطورة وإن لم تخطفها الأيام خطفها المرض، ومرآه ليس ببعيد.

* * * *

أفكار تساقطت وأخرى تسابقت إلى التصاعد، هل تأتي بنفس التوغُّل في النفس، يمكن أن تتفادى كلَّ هول أو تتوقع من الدنيا الجِدة والجديد وما تداعه مردود الأيام ، تحمل معها الحظ وهدوء وبشرى، لكنَّه يعاود القول المصحح رغم ما تعنيه لك الحياة ورغم منالك واستقرارك وحُلمك ستبدأ في الزوال كلما ترغَّب عنك الزمن، ستلقى ما تتهرَّب منه وراءك ومعه مشاكل وذكريات.

كل بحاجة إلى أيام زيادة أو إلى جانب أيام الحزن محتاج لتوسيع محلَّه، رفع القيد عن الأزمة.

وقد تلتقيك الأقدار وقذف، يَمدُ الأزمة لما لا تختار.

وخيَّم ما تشعَّرته من مواضيع تكون بادئ الهم، ومُجريات تغيّر سريع أيامك.

لن تتخذ من التفاهات موقفا ولا من ضعف نفوس الآخرين ميلاً إلى ما لا تسعى إليه، ولن تخاف من طموح لا يتحقق وتهاب تشقق أو مواقف تجانبك الجِدة ولن تكون مُرحبًا للكرب ولا مُقتِّر على شرع ظالم.

الأكيد أنَّك صاحب ثقة ومساعد على الحقيقة وصاحب تنفيذ لِما يعنيك ، زاول حياتك إنَّ هذا الضغط لن يزيدك إلاَّ إختيارًا وإصرارًا على الإنجاز.

هذا الوقت المناسب لن يكون إلاَّ لك رسولاً .

هل واضح ما أنتَ فيه يا زمن وفي بسط بما تبقى لك وبعثر أحوالك، لن يكون بزوغ الشمس إلاَّ بزوغ لِما يريده الإنسان، ولن يكون إلاَّ ما تريده الأيدي من إيقاظ أو تعافي.. لن ينهار الجدار إلاَّ على مجهول لا شرعية له.

لا صفاء للإنسان هنا، ولا تبيان لأمان، الناس كأزهار البَر، ولن يكون القنَّاص إلاَّ واحدا مِن بين المجموعتين لن يكون إيقاظ الصباح أو عوافي الليل ولا إهمال الهجيرة للصبية بالوادي بصوت مجهول، بل نحن الغرباء من تحفظنا على الإهمال، بعيدي عن الوجدان.

وإلتوى الصوت يخشى البوح أو تفاجأ الرفع وزخرف إسمه الودي وخفض للصوت بمعنى الصمت.. لن يكون الكلام الطري شال أو وشاح.

بل هل هناك بسمة تُسبب أزمة أم هناك خلج مسبب خفج الروح، هل ما بالإنسان من ألم محرك للمسار أم إستنشاق لما شوهد على البؤبؤة والموات.

لا تفجُّع ولا عويل لا زوارق ولاإستزادة على البشع لا من ينيبُ ويبيت النية.

لا نحر بقلب الحياة ولا قصدان للغاب تاه الصبر بها أو باح للقدر المولي.

أكوام النيَّة ووحل ورماد، ولأنّ بداية الجبل حجر فلن يكون إكتماله على يد البشر.

أوليس الصمت قوة وأكوام الأحاديث مَجلبة للهم والنكبة، أو لسنا في زمن صوت من لا صوت له وزمن إستيقظ فيه الكسلان وتسطَّع فيه من شق السحاب أبيض الضوء الخافت وربض النسيم عن الهبوب يغيب عن الأحلام..

وإندفعت العذوبة والنعم وإشعاع مع طيف الفجر وسلب الناظر البصر.

وحجر تقذفه في اليمِّ فلا تتصوَّر مع صُراخ العثر فِما ينبعث الصوت.

لم تكن المرأة الدافع لأهوائه ولا لتدافع أهواله بل هو الوجه الآخر المسائل للحيرة، الواقف على حواجز الخوف والكلام المستتر.

ولا ملاطفة عيونها وتعزية لعب أبنائها ولا بحثها عن وجه الظلام بشمعة منيرة ظرف ذو نشأة بل إن ابن الوادي فاتحة لسيرة لا مكانة لها.

وتبرؤ الأيام من غضب الظلمة لن يكون تراجع للباطل أو إهمالا للضعف الرابض بالأجسام.

وابتلع ريقه وتهرب داخله لا تترائ له رؤية

لا رواية لأهل الدار، ولا حوافز لحاضر. تحوَّل "وحيد" يبحث عن الوجه الآخر أو قول يقرع صداه علّة يشد طريق يقدّمه أو يشغل توسله لن تكون روايات المُهجرّين بنشر للإهتمام ولا إلمام بالمهجرّين ولن يسكن القول الضجة، همٌ عميق عمَّق صدقا بالقلب.

تاه القلب وإن قصر النبض، وخاطب الأقدار ما القصد مِمَّا قصدت، مالذي غاب في هذا الزمن وكان لمن مضى.

يا من يقعد على حياة يقرع بها الحظ أو ينتظر الجمال البشع أو يثبت بنيّة الحياة، يبيت بلا حكاية، ويستزيد من مَعين بلا عيش متروي.

هل سنسكن نحن القمر كما سكنته أمَمٌ قبلنا ؟ وهل سيكون لنا محطة من الأرض إلى الفضاء مثل ما هو لغيرنا؟ .

هل تَطرَّق الرأي كبار المهتمين ؟ وهل غار من تقلبِّه ذرة غيرة على هذا الوطن؟

هل تكفي تسمية مدينة بوادي الشلف دون إستزادة ؟ هل نبقى على ما نحن عليه كلنا زوار كما شاع دون إلقاء الإهتمامعلى ما حولنا .

أوليست النهضة بأمريكا قبلنا بقرن وهل نحن نيام لقرن بعدها؟ .

هل لأفعال الأيدي القويَّة نؤجل أفعالنا ولأجل هيبة من غيرنا ومن هُم مثلنا لا نهتم لحالنا.

أي بقاء هنا إلاَّ للشقاء ونحن ننتظر جرفنا بالوادي وننام بأفواه الصخور ونأكل من تراب ووحل القنوات، ونسبح في بقايا الفضلات وزبالة الحيوان. لماذا نفترش التربة ونلبس العشب ونتشعَّر وخز الحصى في حين غيرنا يمشي حافيا على بلاط الشوارع، ويرى نفسه في مرايا المباني والضخم من المشايد .

وهل لنا بفهم الخطأ صواب وتخطيء الخطأ أو إستحسان السيِّء وتلوين الهمَّ بكفوف التشتت؟ ، ومتى لنا بفهم أغلاطنا أو طرق أبواب المغالط والضرب على الحظ في التقدير وقراءة المستقبل.

ليس الإحساس بالشدَّة تراجع له ، ولا الإعتماد على الغير قوة ولكن الإنتشال من الضياع.

نجاح ، ولن يكون الإنتقاص والتقتير بتكملة ولا التفكر في مقت تاريخ الإنسان وعي .

الحياة مزيج من الحكمة ومظاهر- وهاهو وحيد يظهر كإنسان في كل زمن إوخاصة في زمن الفجر يحاول المدِّ في العمر والوقوف على ما تكفلَّته الأيام.

إلى متى ننتظر حتى تكشف لنا الأيام بالنيابة على الخيانة أو ما ينتظرنا لنتوافق وعالمنا الخارجي.. إنَّنا لبشر شرفاء وإنَّنا لبنة لبناء متين، ولسنا بمقصد لعرض توتر أو مُغازلة الحال فيتمنَّح لنا وينتقم . لستُ قاتلا للجار لأعيش مكانه ولا مُقتِّر لأستزيد.. ولا مغلفا لأحتاط، لستُ مِمن يصنعون مَسرحا تعيسًا يوصف السواد والبياض على السواء .

النهضة لا تُمنح ولا تبرز من الحجور ولا هي وفرة وضربة حظ. وليست هي تصفيق أو قراءة كفْ بل هي تمرد على النمطية وعبقرية في النهوض هي توقيف للزمن عند كل إنجاز أوقهر يخلَّف أو الإطباق على كل قديم.

لن تكون تقرير للإنتقام ولا تجديف نحو الصُوَّر في غير نيل. بل أنتَ مترفع عن الإحتياط والإهمال ومترفع لأوسمة النصر. هي نظرتك للجِدة والسُهولة وإمتداد لأدراج النصر.

وهي تغييب لأطراف التراجع.

وفي هيكل كل بشر، و عذوبة وشمس تتبسَّم وروح مُقدسة تصرخ تماثل الغموض..بنا أصوات للنغم الصَداح. قلوب بأرواح التغريد تجري بكنْه الحياة.. النفس تورقت أغصان ونفخت أعاصير وما تبقى بالعمق سائر بسحر ملوّح.

إنَّها اللا حياة بتراب المقبرة ونقاط تصغي لِما لم يمسُه الزمن. دنياه منسية

ولن يكون الأفق بطموح له ولا جامع للجوانب ـ لِما لم يجد هذا المنسي لنفس

أولم يترك الريح تهب عليه إشعاعا فلن تكون حياته مثل غيرك..

العيون أشعة تصاحب الإنسان وتحرّك الإبهام فلا مقاربة ولا نصر يجاري الوعي ويوقف أمامه كتاب الحياة ليمليا بألفاظ فضفاضة ما يهمُّ الإنسان.

إنَّا ما بنا هو ثورة ضعف وإنَّ بنا لفتنة البشر. فمن العبء مخاض وطرح للصراع ومن الإغتراب عناق للروح ومن صخب الحياة إعتراف للتجارب.

لن يكون كلامنا إلاَّ فلسفة من بين الشقوق وهذيان على الخلاء وفيه.

ولن تكون تقارير للآخرين والجماعات، إلاَّ أباطل مُوَّزعة ومَعالم تحثُّ السكون.

كلنا تُغضبنا مواكب الصواعق ويخنقنا السعال الغزير المستعمر إنَّها لَتجارب من الأيام... وليست أقوال على الهمل مابين الشبابية وموقف العزة نزعات وأحلام وألعاب متقصِّدة، وتخييم وتعكير ونواكب وإنَّا لنتحسَّس أشهر السنة القمرية كالشمس ونحاول أن نجد ما بين إعتدالهما، وإنَّها لأشهر متعاقدة متتابعة كعقد تقلدته إمرأة.. أو كسبحة بيد شيخ، فما حاجتنا للتمييز، إذ لم نكن نحن المتميزين فيها..

....

صدُّ عجلة الحياة ، وأوقفَ المسير وسدَّ حاجة في نفس القوي عنا وأوقف الركب أو لم يشأ لنا الزمن أن نركبه .

ماذا ننتظر وقد تركنا غيرنا، ماذا ننتظر وقد وُجِدنا على الرصيف نيام ونحن شيوخ بعمر وبروح تنفحت ورود. وأوَّل ما ننتبه سيكون إستيقاظنا من حلم ذات يوم كُنا بذاتية كبيرة كما نحن فيه اليوم.

ولا زلنا نركب الحمار ونَحش بالمنجل وعند غيرنا إسم ودور للحمار بزريبة حر وجعلوه وسيلة للزينة ، والمنجل لسود الأيدي وحفاة الأقدام هاهو عند المتقدمين من الأمم أثر لِما رحل. هذا واقع وإحتمال

ليس بأكثر مما نحياه، وما يؤمن به وما نحن به.. إنَّه لنهر للأفكار القذارة وسيلان لمنابع ألاَّ رجوع من ماضي رامي إلى إمتداد المُعاناة والمرارة.

لا شبيه لوجه ولا لون لا مراسيم ولا نغم لصوت إلاَّ الإنغلاق على قناعات فردية ومطامع ذاتية إنَّها لصورة مصغرة لصورة الشمس تطل عن بسط السحاب الغائم إرتقبتها أنظارنا بأعناق تاهت طول الزمن.

إنَّ نظرة على الوادي توقظ بك ما بالعمق ويأخذ وجهك رغمًا عنه لون اللؤم.

وإن ألقيت نظرة على القمر عرفت حُزننا وعدم راحتنا فكيف لنا بإرضاء مطامحنا ونحن لا نرسم هدفا لإرضاءه ، صراع مع الجهل ولوحات لم تظفر بوجه ولم تحقق المعنى الواحد للحياة.

لا ما يوضِّح واقعنا مِن حولنا ، ولا إعتبار لإنجاب الرجل الساد للمسد، وتشادت الفرضيات ومن أترابنا لا نتبيَّن المصب.

يتذكرها في كل مرادف زمانه تسير إلى جانبه ويُجانبها يأخذ من منهال لصوتها ما كان معه ذات يوم في الحياة العائلية، وجنتاها تحمل الهموم، وتحبوا إلى ما بقى من نفح الحوافي... تساقت إلى جسدها سلاسل الأسى فغزت وغطت.

حضن صورا بدفء وحب ينهال من ينبوع تبارزت في سيلان جارف توقد جفاءه وشوق وحشي... أقام للعوَح مقصدا وتلهب وإن كان في غير مقصد.

سمع وحيد بداخله نفخ يقذف في شِدة أفكار مُوحلة برماد أفقدها عرشها وأفقدته ضالته وصور تتمرَّر لمجرد إنزياح الرؤية، يزدري ريقه متجاهل نخر تقارير ترفَع إليه.

وتهاجت به نار، وترافعت شفافيه محضور القول وأصوات تعالت:

هذا الزمن غادر.

ولا يزال على وضح تتسارع الشهب ووميض من بين أطياف بالأفق، تجري كما الدم في العروق.

قلب يحمل ما لم يظهر وعاش بالظلام.

ما كان بالليل ترك أثره على الأرض، ومتى طال اللسان والهذيان فلن تكون العجوز تحت التماثيل، ولن تؤخذ على ذنب طالها به الزمن.

يُدرك ما يتصادم والطيف وما يتعسف له وما يوقف به طوابير التخمين قالت له المرأة كانت لها دابة وسُرقت، هناك من يَسْرق الفقير رغم فقره، وينحني ليلتقط رغيف المحتاج وإن كانت مُدمَسَة في التراب.

وهناك من منحهم الكساء ولفٍ من الصوف يقيهم العراء. وبطانيات وتوسيدة للرأس وخيمة تجمع الشتات. هنا تقيم العجوز وأبنائها تأكل من حشيش بقايا الوادي إذا جاعت، وتأخذ أي شيء إذا حال المحال. وكل ما جمعه الوادي من مزابل.

وتجمع بالقلب كل فضلة وما تقزَّز له البشر.

لكن.. كان ينام غير بعيد عنهم، وبركن بالغرفة إن صلحت التسمية عجوز تحكم العظام هيكلها في حركة حذرة وفي نفس متصاعدة .

ويستحم في نسيم وأنوار تسابقت من كل ثقب....

وأفكار في حركة إضرابية متشاركة متفتحة توسع الهمس مكتظة تطل تريد البوح.

أمٌ وأبنائها هامت إذا جاعت وضاعت إذا إعتلت...

عملت بها الدنيا ما أعمى حالها، وأم لأربعة أبناء كل يوم بحال، على شتات لا يجتمع، وعين الدهر كل دقيقة. في صورة بثوب الرثاء وأقدام مكافحة ضريح وقناة ماء وشمعة تشغل النيَّة تظهره من الظلام.

لن يتبدد الطيف وله ببطئ.. وألوانه توسع بالأفق لا من يقتحم المتعنت ويزيل النزلة على المغموم، العالق بسجن عجوز الوادي .

عليق بسجن للوهم، وإرادة مغالبة ببرهة للحلم، لا من يستمتع بهذه الدنيا خاو الوفاض غير مُأمَن للدهر، الألم إيمان قاعد على كل درب يتحنَّن للغني ملاطف لملآ الجيب. وجد بهجته في خاوي الجيوب تعانس على قبو المحروم.

الحاجر المتسابق للعزلة، وضال وجد الضالة عندما سقطت الثقة، لم يتراجع الخلاف ولا زال يحمل صدى الأصوات.

ومتغيرات إقتحمت وإمتثلت ميدان لا يوجد له ملجم. ومسلك الطين نبذته الأيام.

أين وجد الغدير الظاهر..والإنسان الجميل .

بقايا أعمدة لمسرح أحداث وصخور جدران غازلت المكان. وأثر يطابق ويجاذب معابد الأوثان.

إنطلق وحيد إتجاه الغرفة ككل حين هو عليه، يُلاقي صوَّر الظلمة وجدران ما بقي منها إلاَّ الإسم.

لا شيء يقدِّر للحياة، ولا شيء يَقْدرُ على الحياة، بل هي تخوم تراصت لاهية، ولا من أطفأ حاجتها، ولا سؤالها ولا إلحاحها. ما تأكله يحوي مرضاة البطن، وينهش صلابة الجسد، ولكن هناك أطفال يتنازعن على إقتسام مكانٍ على الأرض.

عجوز تدخِّن سجارة إذا تشتتت ثملةً كل دقيقة..

صورتها تعطيها وحدانية لا نظير لها، ومأواها ثغرة مُخربة فتحت للبرد ما إستعصى تبادلها حتى للكلمات مع الغير.. دنيا التحدي السافر وصراع البقاء.

والتاريخ السافر يبحث في وجه الظلمة على مخرج من الغبرات ولا يهمُه من بالمكان على توسع المتر.

يشتغل بما يُشوِهه، ويهرِب الراحة بداخله.

هو الوجه الآخر للتغيير يقرع ويسمع صداه، ومن يزف على الضفاف العكرة، ولا يسمع صوته حتى ما بين الأضلع، لا صدق للقلوب.

جيوش الذكريات تسرف بتشاؤم في سوء الظن. ومواقف السوء أفسح لها داخل الأرض، متوجهة لا يعترض أمسها ولا يومها تيار قوي جاهد في تحدي لا من يعترضه، والمستقبل يحصر دفاعه.

وإكتفى الزمن بأصحاب القرار في مخاطبة يتنادوا من وراء الأسوار.

الطريق إلى الفقير غير متبادل فيه السير، حلم ستعود قواه التصديقية لتُخرج المِحنة، والعداوة ذات القرون تشد أنواع البؤس.

يُخشى الإنسان وهو المُحتقر، وطبائع تحرص على مصير البشر، تطول وتنمو بظنون أناس تصون معارفها ومكانتها ما لم يستطع إليها إنسان.

فمتى يدفع الفرد إلى التسلطن على طبائع لا تراجع فيها و مواقف تباع فيها زوائد الشهر وكل بديل لحلو التمر. قالت أنَّها ترتاح هنا ، وأنَّ الجحر هو ما يمثِّل لها واقعها وميدان حياتها المستقر، مستمتِعه بالتربة والماء، وبِهرم القمر في النهار وتغامز الشمس بالنهاية قالت أنَّها لن تُهمل لونها ولا حالها مثلما همَّلته الشمس أوليس ضياءها أبيض ويصلنا أصفر خافت ؟ أو ليست هذه صبغة من أصباغ الحياة؟.

تشققت كتشقق جذع النخلة منذ ساعة النمو وتخاشت البوح بما يبديها ناكرة لكل مَن يسير على هذه الأرض، أرهقها البُعد، والموت والفتيان وشيخ ينام كل الأيام.

شاهدَ بريقا ببؤبؤتها محجوز ببسمة رابض أو مرابط بشدة من نفسها.

مزاجها غير مُسرِّح ولا متسلسب.. بسمتها كانت كذبة فهل هناك بسمة مخنوقة مطروحة على همل الطريق للنور وليس للشمس غير الممكن المقطوع....

ومن ذا يسير هذه الناحية وهو مسلوب و مصلوب.

الكلام الطري.. يمنح الودِّ لكنَّه لا يمنح سدَّ الإلتواء أصوات الحناجر الطالب للسد.

تتألف آلاف الأفكار لنلقي ما بنا من تصنُّع لكن البشر ألزموا الخلاص لأنفسهم الأقرب فالأقرب. والطريق إلينا هنا بعيد عنا علَّه غير مسلوك لعلو شق الأرض وتفتح بطنها...

* * * *

المقبرة تعيش جُمودا ومقتا على الواقع.. وبداخل التربة يحيا موات لا يتطلَّب الحسابات ولا مُمارسة الذكاء لتؤثر على الوافد. إنَّه البهتان الذي تحمله أعوام الألفين.

وأنفس مُحتشدة بالأفكار، ورؤى غير مستكملة الوضوح، ووضوح باهت لا يرتِّب لخطاه، لا يتركُ رسم لمصيره.

هواء مُضمر يحمل ما يُشقُ على كل الفهم.

تعقيد قاعد على جهاد الأنفس، والشاب الشيخ سائر مع الخلق يحفظ الضَرر عن قاصديه.

"الحنظل" و"أمِ جنية" عقار للجميع وإن كان أولُه مسهِّل قوي ومُسحرٍ، ومزيل للأزمات، فالأخرى رافعة للتشنُّج والإلتهاب العصبي... وهناك عقار لجمع الأحبة. وتوابل تُعيد الثقة.

الشاب الشيخ "وحيد" صاحب القدرة الروحية، وتاجر العقار إسم يحمله على الأكتاف وبين التابع والند يستغرق في التقدم.. إسمه يهوى في القلب فيتقصده العارف والجاهل، واسع الرؤى كبير الأمل على حداثة سِنه مكتمل الزعامة رافع درجات اليقين.

وأطلقت السماء هواء دسيسًا، يتملأ فطنة وافي القول، متواجه ونفسه، ناسيا خطوات ما أمسى منها لكنَّه يخطو نحوها وفي إتساع بين القبور يحصر قدماه عن هذا وعن ذاك، وفي سعي حُرٍ سريع ينحرف عن الطريق مبلغ إلى المنعطف، وينحي معه تسلطه ومنازعته على الزمن.

تتبع الشمس شعاع العين وتأخذ عنها ما أذكته ، وإنحدر على السهل الممتد من رؤى ولي أمرها بغيبته.

سهل المدينة هنا يستطيل ويخطط بسريَّة لوجود أعين على تراب المقبرة

و إنتهى وحيد إلى فوهة الوادي ووقف يحمل معه حقيبتان أثقل محملهما العارض توازنه فإختلف نظامه.

وتسلَّط يمكرُ على المسيء ورفع هِمته واقي نفسه من الضعف وأطلق لقدماه الخطى بفطنة، يشد عليها الدنو والنزول.

تدبر نقلها، وأخذهما بكلتا كفيه: درجة درجة وينابيع الإصرار تدخضه.. تبسَّم مخاطبا حاله:

ألم يجدر بي إبتلاع عقار؟

وهو يباغت التعب و يتهرب من ملل مُثقل.

وأطياف الصراع القوي توقظ أحاسيسه..وتصرخ أن أسرع إلى المكان.

فما توقف إلاَّ وهو يلهث وما رفع جفنيه إلاَّ وهما يتصببان عرق.. ولا علت معاتقه إلاَّ وضُعف يسكنهما.

مرَّ معه الموقف متجاور ووقفته غير ملامس لشيء وإلتفتت عيونه إلى إبن المرأة البكر يتبعه بكل صفة، فاتحا المجهول ومقرب للسؤال، غير مختزن لتجاوز.

ينظره علَّه يَتَفهم إنتقاله أو خروجه عن ما إعتاده من الأفراد وعلَّهم إعتادوا تدافع من حوله ثم إبتعادهم وقد إبتلعتهم الحياة ولم يعد يأت أحد حولهم .

هكذا كان يقدم المساعدة للمرأة وأبناءها فتشكره وينصرف. واليوم قرر مجالستهم

وعلَّ تبعيَّة الأفكار المُسيئة أنهت إليه كره مَن حوله ، لكن أسلوبه البطيء وإكتفاءه بالماضي الموقوف على ما كان هو فعله الحالي،و الإبتعاد على العالم السائر في مراحله.

أحد الأطفال يحمل على معاتقه تفاصيل لثوب لا يحمل على البرد مَمر. مثقل ثقوب يحمل في تحدي الرفض ومجانسة المقاطعة، وهاهو يجلس وهو نائم حتى فاجأهم.

نظرات الرصد هذه كانت لأربعتهم حتى الشيخ وحيد تساءل في فكره، فلم يجد ما يحوِّل عليه السؤال، المجهول الذي قاده نحوهم

وبدأ بالتحية !!

رد عليه الجميع إوكتفى أحدهم بالرد بجزء قائلا:

خير.

وتفاداهم بأهداب متسارعة الحركة، مشيرا إلى من أسفل طوله وعلى حوافي أقدامه من حقائب.

هذه لكم . !!

وتشارك الجميع في الدهشة.. وأفواه تلقي الصيحة الفارغة بدعوة وبغير دعوة.

تسارعوا أربعتهم وقد كان كبيرهم لم يتجاوز الثانية عشر من العمر(أبناء المرأة). وبوجه عجب يرمق ملامح الطفلة من لم تتجاوز السابعة من الحياة، وعلى قيدها... تسير.. تلعب، تحبوا تحنوا مع إخوتها لما حمل الغريب.

جلس إلى المرأة وهذه من لم تكف عن الدعوة له الصلوات درءًا للسوء، والشاب يكرر عليه إنَّ هذا ليس بأقل من حق فلا التربية ولا الفطرة تمسك الناس عن هذا...

وتحت ظل كلمات وارفة وعلى بسط الجمال والعمق، تآلف ما تنافر، وتمرد الفضيلة عن المحظور وأطبق المكان عن ما حوله جلس الجميع

النعمة هبة، وتجرع الويلات طمع عنصري، أفرط وإعتصم بالجحور، لكن ومن بطن الشق جرى ما جرى بالنفس، وإلتقى القوي مع القوي والضعيف مع الضعيف.

وتفجر الصامت حروف همس تمرّرت مع كل صوت وحثّه على السكوت.. وجرى ما لا يظهر عند الإطباق وأبعد القريب تؤيده اليد القوية تشدُّه الإرتقاء.

وهو هكذا في حديث ليتدبر منهجه، توقظه المرأة الممتثلة في أسوَد لم يفك العقد، تتربع الأرض، فاتحة عيونها السود مطبقة على عنقها، وقد إحترزت الضيف.

كنت أبيع بعض العلب، وها أنا أنتهي..

أتصْنعينها.. وتراجع.. حِرفيّة في التعليب أنتِ.

وإستشفت ريقها، تنظره بفُرادة ومجهوليَّة...

بل يجمعها الصبية كل أسبوع من الوادي والمزابل.

ثبت على ما سمع وإستمسك حركة فكّة، وتنافر، بل شق عليه إيجاد الكلمات وفي جيل من الظلمة تمرَّر أمامه كلمة بيضاء:

نحن نُبدع لكي نعيش..

وصمت إلى حد لافت وقال:

ألم يظهر لكِ عملاً غيره.

إذًا.

إذا لتعملي في البيوت !

وأين هي الصحة.

وصمتَ.

هل لديك معاش.

من أين؟.

نظرت إلى ما حولها، وتفادت الشيخ النائم بفراش ذابل، هو زوجها المريض منذ زمن لا ملكة ولا إمكان.

أفهم أنّ الأولاد توقفوا عن الدراسة.

لم يدرسوا قط...

هل يكفيك بيع العلب للعيش..

ولا حتى لربعه ِوواصلتْ...

لكنْ أديّرُ حالي وإستشفت ريقها... إذا جُعنا سنجد ما نأكل ، لنأكل الحشيش أو العشب البري ولكن لا نموت.

والمرض..

لا نمرض وإذا مرضنا ولوَّحت بخمسة يمناها.

وسكتت وكأنَّها تقول وإذا مِتنا فلا حاجة لنا بقبر تكفينا كفوف تراب وبهذا الثغر نطبق، وفي الأرض الراحة.

حرص على حقه في الكلام أو في النقد، وقد كان زمن قصير يكفيه للعدَو والإبتعاد على ما يوجد ولكنه كامن.

لكن الألفاظ تلحُ والأسئلة تئنُّ لا تَكِل.

أرى الشيخ مريض.

دائم المرضِ.

و العلاج.

من العشب وبعض الصيادلَ جزاهم الله خيرا.

ما هو مرضه.

الكبرُ وبردٌ بالركبتين.

وكأنَّه يقول ولحسن الحظ، فلو كان عدا هذا لهلك.

والماء لا أرى عين لذلك.

نبتاع من حنفية المقبرة.

وكان يُدرك مكانَها ففهم.

وتعمَّق بعيونها وهي ترمُقه وكأنَّها ترد على حيرته وكأنَّه يسألها أنتِ، أنتِ القوية على الزمن، أنتِ من وقفت ولم تنامِ والدنيا تضخُّ المزيد من المتاعب، أنتِ من تغيَّرت على حسب قرار الدنيا، ومن داستك قراراتِ الأقوياء.

تفادتها الكلمات لترحل إلى مُضبَّب القول.

أنتِ من تُروضي المفترس لتلُبي شرط البقاء.

وتبسَّم وقال:

ألا تخافي الظلام الرابض؟ .

فقالت لا .. لا أحرص على البقاء ..وأولادي في ذمَّة خالقهم....

....

تركها وغروب الشمس لم يبق منه إلاَّ نَحبٍ فيخمد حريقها ولكن الحر واضح يتمَلمس على الخدود. يتلاعب حتى تتغير عليه العيون تُزيل قوَّة اللون الحريص على دمس النظر، لا ترفع رأسك أكثر.. فلا إمتثال لبشر ولا روح مُخيَّرة على أخرى مهما طالها التحرر.

إستجاب لصمته وواصل التقدم يستنير بما بقي من الضوء سار وسار ورفع عيونه إلى الكوخ، وكأنَّه تعثر أو فقد الأثر.

هل ضليْت الطريق ؟.

أين الكوخ؟ (يقصد كوخه) .

لكن الكوخ لا يوجد.

وقف ونظر بالجانب الأيمن كان هنا، نعم كان هنا لقد تركته هنا.

وراح يَصيح وعيونه متفتحة على آخرها نسي الخير ونسي الشر، نسي كل ما حوله إلاَّ مكان النوم.. وتراجع إلى الخلف وتقدم ودار بالمكان، لم يبق إلاَّ الأثر لقد حُمِلت الصفائح والأواني وأكوام العلب والجرَّاة كل شيء ، كل ما يملك رُفع إلى أين.. !!

لكن أين.. أين.. !!

وظهرت سيارات الشرطة من بعيد تتقدم في سُرعة إحترس إنّه المتقصد، ووضح وإن بهت منه الكثير ولا عجب فالمكان للعام.. وهذا ما كان يَعلمَه وتَعلَّمه..

بظهور السيارة زال المُبهم وسقط المبرَّر وسيطرت عليه نزعات لمشاعر تحمل الدرك من المخاصمة والمقت وغير حذرٍ ينحصر بمكانه حتى حاوطته السيارات فينزل منها ما إختلفت أعمارهم وألوانهم وتوحَّدت ملابسهم تتجه إليه الأقدام، تنهي إليه ما كان...

يرصد أولى الحديث.

الأرض التي تقف عليها ملك للعام، والبناء عليها وعلى الهمل حيازة لا حق لكَ فيها.

لكنِي محتاج وبلا مأوى.. أين أذهب. يقول ؟؟

فكشَّر فيه الضابط.

وما شأني...

عندي أمرْ.. يجب التطبيق.

وأنَا..يقول وحيد

الضابط وكأنَّه يستغني عن الإجابة.

خُذ !. يناوله ورقة يقرأها في كلمة واحدة.

إستدعاء للمحضر.

يُتمتم وهناك مَحضر؟

وهو يُثني الورقة..

ألم يجب إبلاغي لأتدبر أمري.

وبصوت خانق.

وأين متاعي؟ .

هناك !!

وأشار إلى مكان وسط القبور كانت حفرة غارقة في الظلمة أو ظلام يكسو المكان.

غير مسموح لكَ بإعادة البناء هنا يضيف الضابط

وتوقف، المعنى هنا واضح فلِما لا يتوقف عن البوح..

كان إنتقال السيارات في الظلام وإختفاءها بداية ظهور تحدي، وبدء به فكر جديد.. أفكار تلحُّ على التصفية، ونمت به تصورات تتخرج لا تمسك عن رؤى الإنتقام.

لا مكان للإنسان على هذه الأرض، ومطلع القرن الواحد والعشرين يقتصِد حتى في التراب.

سقط الظلام على المكان، لم ينته إليه ولو بشك أو إشعاع أن يتنقل إلى الحفرة، ولم يشاركه ظنُّه في هذا.

هذا جهاد والأمس واليوم متشابهان ؟

متَحدثا لحاله.. وتنهَّد.

أدرك لِما يتهيأ له الكثير ويتبيَّن الهجرة... ليختزل عناصر البقاء فيحفظ النفس تحت ظالتها.

إنتهي إلى جذع الشجرة وتحسَّس جذعها المُمتد على وسط التربة وتمدَّد حتى توسَّده بعدما إلتمَّ في معطفه الصوفي الأسود..

كان أوَّل الأمر مُحترسا.. أخذ عُلبة قداحته وأنار من حوله مُصححا غفلته لكنَّه تداعى للسُبات وما جدوى الحذر ولم تتحوَّل إليه عيون المُنتصر عليه ولو بنظرة شفقة.

* * * *

ومع تصاعد صوت المؤذن بالتكبيرة الأولى كان الشيخ الشاب عند الحنفية توضأ وتمسّح النعاس، الباقي على أهدابه رابض يتحنّن للمزيد، لكنه في مشيئة الله وليس ممكن ولا متاح له البقاء بالمكان الكثير .

أخذ طريقه إلى المسجد وكان سيره فِطري فلا يتلفّت ولا ينظر عابر ولا سيارة وافدة.. لكن خُطاه تقتديانه إلى مكانه.

أوسع إلى بيت الله بوسط المدينة.

الخلاء والمكان عاري من الحركة من الناس إلاَّ نسمات ربيعية تطفح وتنعش.

وما زال يبذل لا من يبدلِه ولا ما يُخبؤه، مُنعزل وعزلة تفتّحت على جسده وحركاته ولم تتوقف على شيء إلاَّ كسته.

أجهز على الصلاة وتبعها بدعوات مَطروقة لِما يعيشه وحلّ به وفي عقر الروح ما لا يهنى، جفّت على قلبه الإساءة فريسة القوي، وأيام سائرة في تناقض.

قصدت كفوفه الخلاء ورفع خمسة إلى الوسع ونجوم لا تزال تتقن بريقها.. وثقل يترجى التسهيل والتعقُّل من تُهمٍ إلتهمته يشكو تشديد ضيق عليه، مغلوب عليه حاله وعوض عذاب أرتهن القهر، وصور لقصص العذاب الجاني على الإنسان.

عاد يقيس الخطى، من المدينة ذات الأبواب العالية وآذان مخلفة للقول.

يلجأ إلى داخله مُعدد مشاهد الأمس، مبتور الفكر عن شطر أنتج الكثير من الإفتراضات لِما سيكون معه اليوم، جلس إلى المقبرة والليل في آخره يرفع عُدته ليغادر وبدأ الطيف يتمسّح لونه...

وحيدا يجلس يبغي العُزلة، على تربة مقابل لقبور متطرفا المقبرة.

أخذ عصى من ذيل رقيق، وأخذ يُظهر بها التربة ويترك حفرا، مستمعا مستمتعا لا يقدِّر للتراب طرحًا ولا للغبار والعفن عثرا.

وأجهز ورأسه مُتوسط ساقيه حتى لم يعد يرى منها إلاَّ الشعر الأسود، وإنخفض متعاقد الزمن موسع شباكه حوله.

كسرت تقاليده قرع صدى وصوت ليس بغريب

كيف الحال؟ .

إختفى نظره في حذائها البلاستيكي الأزرق البالي المشدود بنسيج حفظ إفلاته ولمَّم أصابعها، وعلا مع الثوب الأسود الداكن وإن تجهَّل لونه وتثاقل فتجاوزه إلى إبهام ظاهر...

لكنَّه عرفها هي العجوز أم البنين صاحبة الجحر...

آه كيف الحال.. !!

أحسن منكَ .

ورمقها في شِدَّة رهيبة أفقدت رسم ملامحه..

أعَلِمْتِ؟

رأيتكَ هذا الصباح وأضافت :

بل من ليلة البارحة..

وما السبب؟

لا سبب

جُور إذاً؟.

وأكثر

والآن.

كما تَريْ.

ما القصد؟.

وتنَهد: مَطلوبٌ مني زيارة مكتب الشرطة.

تبسَّمت: إنَّه منزل جديد لكَ .

وجفا كمنْ يلقي ما بِجوْفه:

لا أشك.

غالب أو مغلوب.

الغالبين هم.

وعاد كمن يتراجع أو من أحسَّ بالأنانية:

أين الأولاد؟ .

مع والدهم بالجُحر، وواصلتْ:

شكرا على الأشياء.

أرجوكِ لا تشكريني.

لم تقلْ لي وما أنتَ فاعل الآن.

سأرى ماذا سيقولون لي.. لأرى ما أفعل.

هل مُنعت من إعادة البناء بالمكان.

ولا حتى البقاء به.

يا الله، وكيف عرفوا المكان.

الجواسيس وما أكثرهم.

آه.. وسكت مثل الهواء يتمرَّرون كشيء لا يُرى.

الحياة محضورة حتى على الموات.

كما أشكُ هناك أعين متورطة.. قادتهم إلى هذا المكان.

بلا شك.

أتشكُ في أحدهم؟

ومن يكون غير الزوار.

أتقصد القاصدين قراءة الحظ؟.

ومنْ عدا هؤلاء.

حتى القبور تُراقبْ.

أي نعم.

يُستحسن بي المغادرة الآن.

إلى أين..

إلى الشرطة.

إنَّكَ في طريقي، نترافق !!

وشدا الطريق إلى المدينة.. كان النهار في مطلع طيفه صَافٍ مُستسلم، وغاب عن الأنظار حتى لم يعد يُرى لهما إلاَّ الطيف المُتنَكر.

تقاطعا المسلك فواصلا الطريق المُخالف ودخل هو إلى مَخفر الشرطة وغادرت هي .

طال الزمن به وأدرك به منتصف النهار.. مزيج الحرارة والبرودة وهواء أظهر ما إختفى وما حجز من الفجر لهذا الصباح.

ها هو يظهر على فوهة المحفز، يحتضن آخر القرار كان يتقن التخفيف على نفسه والتنكر عليها، يتقن إرتداء البُردة والإستحمام بالبرد، يعني كثيرا لحاله، ناصحا لنفسه.

التحدي يعني المقابل. وهذا يعني الإنتهاء إمَّا بالخسران أو الفوز، وهو غير مستعد في هذا اليوم للمجازفة لأنَّ ما به من تخزين شَدة وأهلكه..

ومكث بالمخفر زمنا حتى أطلق صراحه.

سار وحيدا في طريق يعج بالمارة والسيارات.. لا من يعرفه بل، يعرفه الجميع، لكن لا من يُحادثه وقد غطَّت وجهه لحية سوداء تكالب شعرها على ذقنه وجفنه حتى كامل رقبته وتوسدت في مكاشفة صدره، وعنى لباسه ما كان عليه معاشه بلاء وغبار وفتور صرخ به، في رحلة لا يُدرك إلى أين..

وقف ينظر وتحسَّس شاشية صوفية مُخططة، كثرت ألوانها مزيج، توقف على الكثب ليظهر صبغة لونه، غير واضح مال في الكثير إلى لون الرماد وأنف ينتظر من يخدشه فيرفع عنه الهمل.

إنَّه أهم مسرحيات هذا العهد أو هذا الشارع أو أقوياء هذه المدينة فبعد أشهر وأشهر يُطرد من كوخه ويُرمى بلا مأوى، ولا سائل ولا من يسأل وكفاه طلب الإستفسار أنّه سيستفيد من شقة إذا ما إنتهت الأعمال بالقرية.. ومتى وقد بدأ العمل أمامه هنا هذه أيام فقط لا تتجاوز عدد أحرف الأيام، إنَّه ضجيج بلا طحين.

كثيرا ما كان يتسمَّع لأحاديث العجوز وكثيرا ما كانت تُحادثه وقد إحتفظ مَسمعه بقولها.

إذا عمدت إلى شيء فلا تتكِّل وإذا عزمتَ فلا تشك فلا قاتل للعزيمة إلاَّ ضَجة الهوس.

صُور إنتشلها من البلل، وقد نال مِنها الظلم وأذهبها عن الملمح، يَنهال من فكره ما حضر يتهرَّب أو يتمتَّع يجد في داخله ما يِرضيه فينطوي.

ولكنَّه لا يزال سائر، وقد تكرمت عليه الطريق بالطول والإمتداد وجار حركتها بلا نقض أو عرضه، عمَّ الناس المسلك، وتفرَّد هو، لا من يَعفيه عن النظرة المتفقدة إلاَّ مُفكر في السبب اللاحق به المُشَنْكل بهندامه، الصاخب والمصاحب له.

سار وسار حتى تخرَّج المدينة وتوسط بساتين أشجار البرتقال وتلحف الهواء والسماء والأرض...

سايرته سيارات إستعصى ضجيجها وأزيز من كل لون هذا لطير وهذا لمحرك وهذا لأحدهم يصرخ أو يقرع.

يحتاج إلى هدوء ليعيد لنفسه الهدوء، ويحتاج إلى بحر ليرمي به حموله.

يقف على بعد أمتار من حاجز للدرك.

آه أنتَ تعالى.

يشير عليه الدركي بالتقدم.

الحاجز مزج بين الحرس البلدي والدرك متفرقين على أمتار منتصف الطريق خارج المدينة.

يقف عند أحدهم:

بطاقتك؟ .

يدخل يمناه في أقرب جيب ويخرج بالبطاقة.

يقرؤها الدركي في إمعان.

مِنَ البلدية أنتَ؟ .

نعم.

وإلى أين؟.

إلى الخلاء.

ودون أن يرفع إليه رأسه أو عيونه..

المعنى؟

لا مكان لي.

وأين كنتَ؟ .

بالمقبرة..

أليس لديك مأوى؟ .

ولا حتى أدنى مرفأ.

والعمل؟ .

كنت أقرء البخت وأداوي بالعقاقير.

الآن فهمت.

ماذا؟

فهمتُ لِماذا طُردت.

إنَّه عمل وليس بخطر.

عندكَ أنتَ.

وعند الجميع .

يُناوله البطاقة ويتابعه متفقدا ملبسه.

لماذا أنتَ هكذا؟.

ومِن أينَ لي بالرفاهية فأكون السبَّاق؟.

أوليس مَعك نقود وكنتَ تعمل؟ .

لسدِّ الجوعِ فقط.

إنَّك توجِّه نفسكَ للخطر؟.

لا شيء أخافُ عليه.

الروح غالية.

وأرْخصَها الإنسان.

لا تتفلسف.

الحال هو السبب؟

أنتَ أدرى.

لو كان بيدي ما أعمله لعملته لكَ.. لكني العبد الفقير ومِثلك أعمل لأعيش. قال الدركي مترأفًا بحال وحيد

إذهب وإبحث لكَ عن مأوى قبل نزول الليل.

تفرَّد بعدما تخلَّفه، والدركي والبقية يتبعون سيره صرف وجهه عنهم، لا من يحتاجه ولا يحتاج أحدًا تاركا الأحكام للصمت ومطامع التطلُّع.

يكفيه ضُعفه وليس بحاجة لمن يضاعف همَّه. في طريقٍ خاو ما به إنسان إلاَّ أشجار للبرتقال وبساتين جلس على أوَّل صخرة، تئن قدمان فيفصل فيما بِهِ يتمسَّح الركبة فالفخض، حتى أصابع الأقدام.

ينزع حذاءه ويُلقي نظره على قداماه نسي لبس الجوارب وكيف لم يحس بالبرد لعلَّه تناسى أو مِن أثر الغم والعتم الذي يعيشه .

وبسط الأصبع الصارخة من الضيق وطوَّل ضمه.

رفع حذاءه الأيمن وقد أحسَّ بتفتفه وإن لم يحس فقد كفاه النظر.

تدخَّر طاقته وإستعداده وقد أبدى تحيرا، ومن له بسراج للزمن إن أخطأ من الآن، لابد من إستصواب النظر، يحتاج إلى إحتكام للقدر، ليصرف عليه مدُّ الضرر .

ألم يكفي ما أنا عليه..؟

وصمتَ:

أنا مجنون وقائع قاهرة وهمٌ و فحش وتجشُّع..

وصَمتَ.

الساعة يقول محدثا نفسه ..وينظر في ساعة يمناه.

وماذا تمثل لي الساعة فعندي كل الزمن.

جوعان..

ولا أحس بالجوع فماذا يعني لي الأكل؟.

ولا يزال يجلس وحيدا وأصراب الحَكايا تتداول عليه دونما إدراك لمَعناها غير مُبالي لِما حَوله بين أسئلة وتخفيف، وكلمَا أحسَّ باليأس قال سبحان الله كانت هذه عادة..

الحياة هي العمل والعمل هو الحياة، وتَنَفَّض يديه ، الدنيا إستكثرت علينا النعمة أو إستكثرت فينا البقاء.

وصَمت...

لسع الهواء البارد عيونه فبرقت حدقتاه في منظر من يُوجب حق وينتهك.

فلنفسي أعمل.. اليوم تيقنت وأصررت لماذا أسمع عن مغادرة الشباب للبلاد ومن البحر رغم الموت الرابض ، اليوم تلمَّسْت و تحسست أنَّهم إلى القبور سائرين لأنَّ كان بِهم الدرك من الحياة، يبحثون عن الحظ لدُنياهم، لا يخافون الغوص ولا البحر لا القرش ولا حتى ملك الموت.

كان الحديث لا يتعدى حُنجرته لكنَّه يتحدث وكان يسمع ما يلاقيه برضا ما هو عليه لا يرى ولا يرضى أحد يتدخل به.

الشكر نعمة.

وماذا ومنْ أشكر.

أشكر الله يزيدك.

والنعمة بالله.

ألا تحتاج للراحة.

بلى.

إذًا إلقي ما عليك وإرمي حمولك.

على من وإلى أين؟.

إلقيها هنا وارحل.

إني أبحث عن مكان.

مكانك ما كان.

ماذا تقصد؟.

المقبرة.

سأُطردُ ثانية.

لا يمكنهم طردك.

وإذا كان؟

جرِّب

يتسمع إلى قريعِةٍ من قلبه ونغم من ظنُونه يلحُّ وينبّه أنْ لا تستكثر على نفسك القليل، ولا تقف عند حد ولا تقف عند غفلة فأنتَ السيِّد..

أحسَّ بغرابة وأحاسيس تسكنُه ، الدنيا أنارت حوله وحدَّق بداخله ولاحت أمامه علامات الإستحسان بعد السيئة وبدا له ما لم يحتسب كمن شفا من عِلَّة. وتوقف قليلا من تذكر :

نعم ذاك المكان.

أين.. !!

الجبل، نعم هناك مكان لي.

وهل تعرفه، رأيته ذهبت نحوه.(محدثًا نفسه) .

نعم... وهذا بعدما سمعتُ عليه.

قال لي أحدهم ذات مرة أنَّ هناك مأوى لي أفصل بكثير من القبور وأنَّه مهجور.

ألا تخشى الهَجر قال رأسه

مَن.. أنا.. لا تمزح.

وأخذ يُسرع يلبس حذاؤه.

إذًا لقد قررتَ؟

ولن أتراجع.

ستعيش بالجبل؟.

نعم.

والأسَاطير التي تسكنه؟.

سأكون إحداها.. هيا بنا.

* * *

لم يبق على ساعات الليل إلاَّ دقائق قليلة، ويسقط على الغفلة، ويكفل بالأرض المتروكة دمس عتَّم الرؤية.

وهاهي آخر الحقائب يضعها بآخر ركن بسفح الجبل.

إلتفت حوله فوجد بِهِ حفرة وبها ركم التراب وبقايا صخور تنحَّت عن الصلب وحضنها بطن الكهف.

إستسلم المكان للخراب وغفلة الزمن، حتى يئست منه يداه وهو يرفع عنها ما إستتَّب وخندَّق، لا يكفيه شهر ليُخلي الفوهة ولا يَدان إثنان مِن رفع الغي، وسَطحٌ لا يظهر لا لون ولا بريق.

حدَّق قلبه بالعُمق مُتبع رقصات لهبْ الشمعة، ومدُّ البصر يرد الرؤية لكل ما حوله، حتى بدا له الرضى أقوى مِن الإساءة وأصبح في نعمة مِمَّا كان وتنعَّم بهدوء الترتيب وإحتبس صيحة الفؤاد وتنصَّب الوجدان ليردَ السيئة إلى معالجة تكفَّلت بصون الغي.

وقف وسطًا وتلفت إلى يُمناه يحمل شمعة، يتفقد، إذًا به يتحسَّس شيئا يتحرك يعبث بأدواته بداخل حقيبته، ينحني وأمامه الشمعة ترفعُ شُبهة الظلام وإقترب وإجتذب الحقيبة العلوية جانبا وأخذ بالسفلى.. قرَّبها إليه وبيسراه أخذ يفتحها وعلامات عدم القبول ودهشة كابسة على عيونه وصدره:

قصَّر نظره وإقتصر وفتح الحقيبة طولاً حتى ظهر بطنها يمتلأ ملابس وحاجات ليومه ورفع الثوب الواحد فالواحد وهو يتحذَّر يتسمَّع ، يقرِّب الشمعة فيبرز أمامه فأر صغير كمن بدأ الحياة.

أولٌ ويتبعه آخر على نفس عمره..

فئران بالثوب، لا تقلْ لي أنَّك فعلت فعلك.

تعالى.

أخذ الفأر الأوَّل ووضعه في كفِّه وأطبق عليه من رقبته حتى إحتكم وركن الشمعة، ونبَّتها على الأرض بقطرات من ذوبانها فوقفت.

وأنتَ كذلك.

حمل الفئران هذا بيمناه والآخر بيسراه وخرج بهما عن الكهف وإبتعد خطوات بحث لهما عن ما يُكفلهمَا فما وجد غير حصى تحتَتْ عن الجبل ، وأقبل عليهما راميا الواحد فالواحد.

خُذا حظكما من الحياة.

لكمَا كل هذا السفح.

لم يستطب المكان ولا نَعم له مَأكل بل لا زال لم يشفَ مِن عِلله حتى يئس من التفكير، عصَته عيناه، ووثب أمام مَعصيتها وبدا أمامه ما لم يُحتسب من يومه كيف قوي عليه القوي ولم يَسْتُر نقمه مما أسلمه إلى هنا.

وبدا له عصيان نفسه وليُرضي فِكره وليهدئ مما أصابه تقَّلب على جنبه لتقلَب ذكريات غير مُلام لما تعفَّس، وتركت يداه الجمود وإرتخت على التربة، وصَفا باله ولان مَلمحه، وتصمَّتت حركت ساقيه حتى سكن نبض العرق بهما، وتبع هواء بارد من نسيم نُقل إليه قشعريرة في رِقة، سُلب من الحياة وضمَّته دنيا مُصورة في أحلام ولليل كل الحُكم، سائر إلى الهدوء مُتداعي مُمتنع عن هلكة التفكير.

وغمَّ عن السماع فلم يتحسَّس دخول طيف الضوء ولا صُراخ الغير إلاَّ بعدما أحس بألم بأحد جانبيه فلفَّ جسده إذًا به يُسْلم لدينا الأيقاظ.

مَال في مَكانه وإشتكى لِمكان ظَلمه ولحصَى وخزته ونعتهما بمَن يَمتصُ الرحمة ورسائل الفكر لا تكلُّ عن الكلام.

وأخذت يمناه أسفل ظهره تشدُّ بقوة وتُلملم الجفا.

وكأني أنام بالوادي؟ .

وتوقف كانت الكلمة كافية لأنْ تعود به إلى ما عرفه من قبل وبلا خضوع ولا خنوع تجدَّدت به ما إستكثر قليله بفكره وحفر نفسه حتى أدركها.

كيف حالها الآن.

وكيف حال الشيخ والأولاد(يقصد المرأة التي تعيش بالوادي).

وشدَّه البال أن يقوم بزيارتهم هذا الصباح.

نعم سأفعل.

تسمَّع إلى نغم قلبه وإمتثل وفي سيل مُعاتب أشعت وكرهٍ ولكن هادئ ، وأشغل التعب قلبه في عدوى أخذ بمجامعه ، خال إلى ما أتاه وراح يُسرع يستغل الزمن ويتنكر توغله، نفض الغبار عن يديه فيرمي عليهما الماء وعاء ثم الوعاء، تنغم وجهه وأعاد لعيُونه ما يُؤتيه كامل النظر، وتواصل إلى رقبته يشجب التِيه والسهو حتى أحدث الترتيب المرغوب بما فضَّ سُكونه ومع تمسَّح سرواله من غبارات ، كانت قروحه قد سكنت، وما غدا به بائن ما همل وإتفق، وتعلَّم فِما أفسده زمانه أنَّ الفقير للفقير أهل وقريب.

أبعدَ عن نفسه الخَطب وأعاد الأمر إلى نِصابه... سَقِيم يبتلعه الماضي وتبعه إلى حياته مُنقاد إلى ما يتفق بنفسه وتلوَّنتْ شكوكه.

وسار.. وفي كل تعدي يلقى نظر على مستودع فؤاده على الإنسان المنسي يبحث وإن كان يَسير إلى أحدهم فهناك آخر يقبع بِه ويظهر في حركاته.

أتُراها خرجت؟ .

وإن يكن فالشيخ هناك.

والأولاد.. أريد رؤيتهم والسماع إليهم.

لماذا؟

لا أدري.(ولا يزال محدثا نفسه).

ربَما للشَبه وقد أخذتُ مِنْهم الكثير.

رُبَما.

عزَّ عليه الوقف وإن قصر جناحه وعزَّ عليه الإنقلاب إلى الصوت المنادي من خلفه وإستقل السير.

إلتهمته المقبرة وتواجه ومكان حمله شهور حتى ألفه وإبتغاه ونشد المقصد حتى وقف على الشُفرة يُخلي النظر.

تنزل الدرج ودنا عن ما إرتقى، ونسي الوجود حوله ، تدافع في سرعة وأصوات تهز وتعلو وآلة تعطَّلت يتواجه والحقيقة أناس كثر ومكان متقصِّد إنَّه الثقب.

إلتهب ظنه وصرخ فمه:

مَن.. العجوز.. الشيخ.. أين.. هل ماتوا.

ومع مرور الوقت عرف قلبه فرط ما حدث، ومع كثرة السؤال تاهت العيون وتعذَّر إلقاء النظر عليهم وإن كان وجودهم مُغيَّب فقد ذاق ألم الغياب، وكما عرف طبعه الصبر والكِتمان عرف ذرف الدموع وشقَّت وديان الدموع لوح وجهه، بكفوف مُرتجفة تحرق قلبه وأسرع إليه النحيب.

تعذّر عليه لقاءهم لآخر مرة... وإن كثرعليه سؤال الإستفهام إلاَّ أنَّه أدرك فعلة آلة الجرف وإن عزم إلقاء اللوم على الفاعل إلاَّ أنَّه إستعان بطابعه وطالعه ولن يكشف أمام الطاغية وهو من مازال مَعني وعلى عيون الهدي، لمن رُبِط بهم وتجاذبهم إليه من تغيروا عن بقية الناس، من تخلفوا عن الحريَّة ولا زال بحدقهم الإستعمار... ومن تعفنوا وتعافهم الزمن ومن إستثمر فيهم الزمن وهجرهم التغيير.

وقد هلكتهم الأواني القديمة المفحمة وبدلا من الإتيان على الدنيا كانوا أشياءًا غير موجودة وتمسَّحتهم التربة فلم يعد يُرى لهم حينًا.

طال وتدافع مُشترك الرغبة في الإختيار وباح أمام الخطئ المُكرر، وأراد تحويل رأسه إلى بعيدُا مُقتنعا بوجود إجابة لما حَرَّق إسوداده فرأى أشخاصًا هناك أصحاب هيأة .. لكن واصل كلامه :

لِمَاذا نكرهم الزمن ! وهل طردوا مثلي ؟

وهل نموت مع النسيان والصَمت الكاذب؟.

لماذا شاخ فينا الحي وتعشَّق المكشوف وجهه حفنة التراب هذه؟

إقترب "وحيد " من الشخصين وسألهم :

قال أحدهم: إنَّها أرض إستثمارية هذا المكان سيكون مَمرا للمقطع المقابل للوادي وهناك أشار بسبابته خلفه بعدما إنقلبت معه كومة البشر.

هناك بتلك الأرض سيكون أفخر الأماكن.

قُلِب مكانٌ استثماري إذا؟

إشتراه أحد الأثرياء؟قال أحدهم

وحيد: ومن هلك... أقصد العائلة.

لقد هلكوا وهم نيام قال أحدهم

غلطتكم إذا؟

لا أبدًا...جرفتهم الآلة ورُدِموا مع الركم...

وماذا عنهم؟ ...

هم الآن في حفظ الجثث ليدفنوا.

ألم تُعلموهم بالهدم؟

لم يُعلمُوا بوجودهم بالمكان.

وإرتدى وجهه لون آخر وتسلَّق جسده حمَّاما باردًا أوقفت حركة دَمِهِ وتخلَّف فكره فيما لا شيء يراه أو يَحسُّه.

من يهبني صوته فأصيح في الموتى أنْ إنهضوا؟ ، من يُصحِّح خطأ لمرتدي الحياة أو حسبوا ما بهم غير الروح. إنهم أرواح أيضا. عاريا أو متلحفا شاب أو شيخ واقف أو جالس نائم أو جاثم ستلقاك الموت أيضا لو كنتم عشَّاقا للحياة، أنتم قاضمين لعظام البشر ومنحتم الأجنحة لكل من البقيمة على هذه الأرض، لماذا لو تركتم الحياة لكلِّ إنسان،؟ أتظنُّوا أنَّ هناك أحدًا مُختلفا عن الآخر؟ أتظنوا أنَّ الإنحناء لطريق الموت لن يطولكم ؟ أو تظنوا أنَّكم ستبقون مُعلقين بين السحاب والأرض ولن يُقصَّ بكم الحبل؟ ما الحكاية والموتى ينامون أمامكم؟ إنَّها الحياة والموت في أدوار والكل معني بالرحيل، قد تحمل الأيام ما يُغيِّر فيها وستحمل من وجه التاريخ حاضره ومن أشباح الماضي ما يُرَوِّض قساوتكم.

كثرت الجلبة وكثرة مجلبة الضيق لنور شحَّ اللون وتسربلت فروع الهول تلتقي وتُلقي بكل ما عرف وما لم يُعَرف ، ووسعت الآلة بالأرض من كل مناحي تستفرغ بجهد ما بالوادي إنَّهم لذوا إتقان في إيجاد الموت.

وإلتقت كلماته بالريح فحملتها إلى الفسح ببعثرة على طول الوادي بدنيا ليس بها شيء، ودخول لتراجيح لم تلتق ولو على تكهن.

كثرت المجاري والمصب واحد.

وراح يواصل:

كل شخص وليد تجربة لا من يُولد من جينات إضافية إلاَّ أنقصها ولا من عرف النغم ليرى السقم.

برقت مِن هناك غيوم بلا مطر، كانت شعاعات من شمس تخلفت تطرق أبواب الغيم تلقي النظر من داخل السُحب.

ما فات كان أقل مِمَّا لحق وإنَّ اليوم لناظر على ما كان.

لم ينجوا مِمَّا إجتذبه، مزروع بما تلاحق مستقبله وألقى بحاضره الماضي المُر، يختفي بِهِ كل شيء وبه كلام أعمى، يُؤمن بالسلام ويُؤمَّنُ له وإمتداد أيامه كوَّن له وجود حتى إقتنع بأكثر من وسيلة لإكتشاف المواقف وما صَغته أسعف النخيل وهي تَحمل بها ما ألقي من خبز من صنع اليدين بأيدي أطفال على طول الطريق.

أفكار مُلفقة صلبٌ مَلصَقُها بالأذهان .

وتجفف سعف النخيل على هواء يُطارحها طيلة اليوم وعلى طول الطريق وهواء تبعته عجلات السيارات المُحدثة لحركة الخط في دقائق الساعات، ووقف الأطفال ليمنحوا للمسلك الوجه الكاشف لرغيف العيش.

كَسَر عُزلته عندما حرَّك قدماه يُعاود المَجيء عائدًا مِن رحلة من يعد لها دبيب وجه، وعربات شحن التراب تجرُّ في سرعة وبِلا عثر بِبطن الوادي.

لم يعرف سبب آخر لِما هو عليه وقلبه مُتعلق بمن كانوا هنا ، إنَّه قرار مُتعلق بالقوي ليتَه يطوله فينزل المِقصلة على رأسه، ليتَه يراه ميت (يقصد من أهلك المرأة وزوجها وأولادها بالمقبرة).

وصمت..

لكنَّه صاحب تاريخ.

المعنى؟ .

إن كنت تريد السلام فلا تقف أمام القوَّة.

ومن يُؤمِّن لنا السلام.

أنتَ لنفسكَ ، ولأنَّ الحدث قرار، والقرار تاريخ مُعلق بصاحبه ونحن؟.

نحن أطراف كذلك.

والذين ماتوا بظلم ماذا عنهم؟.

هناك كلام موقوف ربما تعلمَه العجوز وحدها.

كيف .. !؟

لا أدري إسألْ.. أو أقل لك أترك القول للقادم يسير إليك من نفسه وبسلام.

* * * *

وحيد مُتردد غير معيَّن، لا يُمكنُه تبرير، خالف حركاته إتهمَّ الغريب (الأشخاص الوافدين على المكان)فاقد الشعور بتقليب أمره، ولن يقبل التعزية ولا بإصلاح حاله ، مغلوط في حضانة جاهلة لا يميل ولا يستند، إنحنت به العاطفة وتجوَّف مُحتواه ناقص أمكن إدراكه.

وغير مطلق التفكير، محجوز القول والفعل هائج محرَّض

مِن شدَّه تحتمت نِيَته نظر إلى ثقوب فتفَّت جِدار الجبل وكثرت كلما وسَّع النظر سار والأرض وإشتمل كامل الحفر.

ماهذه الحفر قال وحيد

أخذ الفأس و تشمَّر و في رشف للريق و ترشيح النفس إختلط صوت الطريق و الزكام في رواق أعاد الصدى أكثر مِن مَرة و في تأليف نافذ فحص شدة و دقة الوقائع .

و حركات تدل علي دهشة نمَّ دلالا وتمرَّد على الأزمة وتفتك عن دلائل الإجرام يستشفي من أجرام دللت على النصب بالحجر و لازال يستدل إذ وقف على عمود في طريقه فاق قدرته على قلب التصلَّب ، لكنه واصل الحفر .

تَدلَّك يديه و إحتكم للقبضة حتى إلتهبت شراينه وذرف ريقا حُرًا مَسَّح و كفكف و غزا سُكونه في دمج أجمع كوامنه .

أكنتَ دون أهمية ؟

علام تتحدث . و أنتَ في ديجور و ظلمة ...

جهدك حال دون شيء. مكلما نفسه

سأنسف ما ترى و أمرُّ إلى ما أحتاج ؟

ماذا تريد ؟(ولا يزال يكلِّم نفسه) .

بيض الديك كنز ؟

عندما يبيض الغراب ؟

كلام دَويٌ رعدٍ وهذا دوام للمزاح بلا مِعيار إنَّكِ الشوكة دوارة .

و الحَفرُ لا يزال حَدث يومه و مناوبة دنت بالشخص للخسران و ذبذبة دميمة مُصاغ الأقوال و كان الحدث مُتوقعا و ألمَّ بالصمِّ الحاد و صِفة حالة النظر أزيح التزييف و رمى النور وصحَّح العمى و أشْفى من المتاعب و المشقة ، و إستعرضت ألسنت النور سباتا أضرب علي العيون و من هوَّة لا تسبح إلى غور يأخذ أسباب الوجود ...

....

ومرت الأيام ووحيد بالجبل يبحث ويحفر ويتفقد المكان ، اليوم خرج من الفوهة وإبتعد عن الجبل علَّه يجد الجديد وهاهو مِن بعيد يعود إلى مكانه

و راح يتمهَّد إنزياح ستار الدخان و بِتحري صراخًا موصلا ، نفذ إلى كل مغطى لم يكن له سبيل للخروج . حتى شاهد مجموعة "رجال" يغادرون فوهة الجبل لكن من الجهة المخالفة و أرخى جفونه في إتقَاء لصفحة سجَّلت حالة سجن و سجت الأفكار فجأة فتخفى جانبًا هل كانت زنزانة . أو مكان تصفية ؟ (يقصد المغارة)

هذا إكتشاف مَرحلي و الغائب بالفكر لايزال كثير .

لا تلقي بما تكتمه فللجدران سحر و قدرة و جاذبية ربما هي صدفة فقط

لا تمارس عليا الشر أو سحر الإعتقاد ؟

فهل نسيت سحر العقاقير ؟ سحقا لك . و أنت تسحق خصمك بعقار أتتهمني ؟

الأفعى تحرس فريستها ؟ودخل المغارة بعدهم

شدّ يا رجل تأثرك و لا تنس ما أمامك من مفاجأة

و زعق بملء شفاهه ولايزال مكلما نفسه باحثا في المغارة

أصمُت عنى ؟ مخاطبا فكره

و شدَّت عليه العزائم حاذق حذر في شذب و تفحُّص لكل آت والنور بِسفالته و علوه ميمون وتمشت أرجله في التراب كما سعت قدماه كامل الغرفة و ما واصلها من خرق في الجبل . فسيحة في سريان و سرِّيَّة الخيال . سريع الإطلاع و الإدراك . سطا على كل ما جدَّ و تفتح على المكان و في معرض و دوران يُفسر ما يقف عليه . يطل من جُحر في الجدار ؛ ونقل الضوء رجحان حبل و في إستشارة ذهنية علم بِسرِّه .. بكل طيبة خاطر لقد كان الرجل على هذا الباب و دندن في أذنيه لحنًا دنا إلى ذبذبات نحلٍ؛

ألا تظن أن الوالدة دعتْ لك ؟ مكلما نفسه

أدرك ْ ذلك ، لأنك بعيد عن كل دنف . و إن كنت شِبه يقيني لأعمى نصفه هنا و آخر لا تلقاه بأي مكان

وأنتَ ... أنت الظل في تصرف خال

هذه الشبهة من جانبك تسيء إلي ؟مكلما نفسه

تكلم عن ما تخفي ؟.

بل أنت ما تحتشد و تنصَب . وهذه المغامرة تشبه قبر الحياة هناك أشباه ظنون وعندي خطوط لشبكات شبهة و وقف فوق أدنى ظل شبهة.

لماذا هؤلاء هنا ؟ و بهذا المكان إنهم رجال يأتون في أوقات متفرقة إلى هذا المكان بالجبل هل هذا نذير شؤم أم مجلبة لشأفة الرذيلة ؟.ربما كانوا رجال أعمال ؟

ماذا تظنهم فُسَّاق ، لابد وأنهم يبحثون عن شيء أمرهم ذو شأن لقد كان بينهم شخص رفيع يشاور و يؤخذ برأيه و إنهم لعلقمة تشايعت و رفعةٌ للذهن شاهرت الشواهد .

و إنثنى بِداخله يعتزم في عزلة تنتهك و حرمة تنقلت ما كان . و راح ينهي ما إنتهي عرضه .

كانت سريَّة المسألة و الإنتهاء إلى حرمة الجبل مقصده . وإنَّه لخلاف علي ما أنهض الهمة و لا يكن إلاَّ مُثقل ينتهز له و إنتهج له السباق . و تنقل النظر في تذكرة أنهشت قراره تفتح المكان ، تلمس الجدران و وصل لكل ثقب و هوى على ما احتوى و إنهرست الحصى على وقع خطاه . و لا يزال يتبع إنهمار الضوء ما أهاب و لا تأنس . وفي غرة إنهال عليه التراب من دعامة أنهضت زكامه و أنهكت يده في إبعاد ما همَّله الإنهيار .. و إنزلقت قدماه في هول و قبع بكليته في درجة صهَّرته حتى إنصاع .

و إنصرف إلى ما أتاه في نصفين مختصمين . وصرامة ألسنة لكل منهما حباله و لا ما ينصر أو يحكم بينهما و لم ينصرف تشحن بينهما و لا إشتغل إلى غيره إلاَّ إنشق تشعب الغبار سالكا المسلك وحيدا .

وصبَّ الهم و الكلمات المُنصفة بكليتها للشدَّة .حتى أنصف و تدرَّج إلى الصغر ما كان قد كبر ...

و عادت إليه رؤية الدنيا و عادت الرؤية له .

و أغرب من همٍ ما لم يرى، و لم يمر أمامه في حياة والديه أو واحد منهما و لا ممشاه مع الزمن وحيدا .

بقايا عظام بشر أغشت ليله و أغالت ثمره قبل الوقت غرقت عيونه بما وجده .. فما أغضى وكيف و قد طرقه ما أغرقه..

أغرى على المكان و كل ما تهرَّب حوله وعاد إلى نفسه و إلى فراشه يشدّ هدوءا نقي له و أغفل التفاصيل علّه يلحق القليل من الليل ، و أغلب لوقت في حركة إغراء مع وعد وشهد له مراتب الإطلاع . و أغزر موج سيوله . و تشرَّع قاربه على ركب فراشا أغرقه في نعيم و هدوء إعوجت الشمس إلى مسعاها . و أعيا الريح نفخ طالعه و أغار على تحريم أقفل عيونه .

و أشرف على الغار يحصر ويدور كَمن يبحث عن من لم يتصور له مكان .حكم على نفسه بإمداد الراحة و أنصفته شِدّة قضت عليه البارحة و إحتكمته بإدانة الروح .

و كسر الجماح مشى حتى بَعُد به الظن .. دندن وحيدا .

لا أزال هنا بقلب يقول وحيد أستلُّ منه الشريان و شيطنة أضحكته بلا حيلة ..لا يزال القلب محروم .

و وقف على قدماه في نظرة حاسمة على حاشية الفراش وقد أسفل صفحة سوداء حجبًا سدّ الحاجة .

جاء الليل وإنصرف وحيد لفراشه ، ومع الصباح توجه غير بعيد عن الفوهة فأشعل النار وطهى قهوته وعاد .

أمضى زمن وعاد و قد سَهَّل ما كان عليه من سهر و تعابير النوم و السبات سوّى بين شخصين أحدهم ناشك والأخر صاح و إقترب منه و هلّ و قد أتاه حقيقة وجهه .

تحسَس به مخالب تسن في حدّة و رويَّة و شفرة ملاك و عفرتت كبريائه و حيلة شاخت في مثواه و تشبعت بداخله جثة له و لِماضيه .(ملُّ هذا وهو بالمغارة يبحث)

لن يكون أي رجل و لكن يكون صاحب زي شاع عنه أو أشبه من يبحث عن حق تشابكت حقوقه و أشباهها في مضاعفات للحياة ورسم لأناس إشتركت في الجريمة أو في النفور من

البرد نحو الحرّ ومن الألم نحو البرد لها إشتبهة بنفخ الثأر و أشبه الأمر بإشتراك بأسهم في خدمة تضبط الإشارة للوضع و مشاهدت أشَّعت أشعة .

في فترة إمتحان صاحبته . و إستنتاج بلاء لم يحتبس له. غير وجهه الحاث الخطأ وطفق لقوَى جهل تصعدت بما لا يعرف له عقلانية.

طريح الهم غاص فيما يعبوا و ينجلي لثواني تربَّع بالمكان في خير إدراك عسير التمرير في تحادم و آثام شرور و شرود مسَّ عمقه.

شَق صُفوف الصَمت في مسؤوليته وصَعدت الهِمة شافهته المشاورات و تَصدر ما فاض حتى إطمأن مُحدثا عجَّه. أقربته الوصول إلى رأي يأخذ به و يُنهي ما به. وراح يبحث في المكان ، ولكنه توقف ووضع يديه على خصريه الأيمن والأيسر وتبسم :

إذا لم يدس هؤلاء كنزا بالمكان فالمكان هنا هو الكنز ، وهو يتبسم : لا بد وأنهم رأوه مكان حمامات معدنية ومكان للهواء النقي ، فالمكان عال وهواؤه ليس كهواء المدينة ، مثلا يريدون الإستثمار بالمكان لِمَا لا ...لا يوجد أجمل ولا أبهى من هذا الموقع.

و تباعث شرور ُمتيقنه بما تلقاه في حياة لا نظام فيها ماذا لو إلتقوه الليلة بالمغارة ؟. و هل سيعودون. و عن ماذا يبحثون...

إذا كان ما تظن فلِما لا يكون ذلك على ضوء الشمس. فالمكان حوله يُظهر الثغر إلى كهف أخبار و مِنخار يُشرق بالقذارة و فِعلٌ يُجهل زمانه. حواسه تطرق و تُبرهن و شعور أخضع إلى عِرفانية لم تسبقها شكوك كهذه. وتفتَّح كلام و آخر و حدث يترك تاريخا بحياة وحيد أو يكون قرار على حياته فماذا لو كانت شبكة مافيا أو إرهاب؟

و في رحلة فريدة و هويَّة داخلية كثَّرَت مصابه وأيقضت ماضيه ، وما فات كثَّر عليه الفرضيات و أحاله لِحيَّل و ذاب في آلاف الذكريات يختار واحدة تنظره في القادم الحاصل. تجري به أفكاره إلى غاياتاً لحقته بالحاضر و على مضضٍ توقف على سُلَّم أسلمه إلى آخر درج الماضي...

إنَّك من بين الناس المولودين بالتجربة و ببذرات تطرَّحت في تربة الخلوة فلماذا لا تنتج لِمَا يرفع عنك الشكوك فتَعثر على ما يوصِلك إلى قناعة تُسعفك إلى موقف.

ومضى الوقت و إستأصل أجزاءا من مضيض الأفكار حتى إستأسَّد المكان، فجمَّل الفساد و أذن لرذيلة حكمة له بإستئناف ما إنصرف من خطب.

و في إستئناف لمَدِّ العلاقات و الذهاب بِما ترك به إلى أبعده أسدل الستار و إستأثر بكل جواز.

وراع الإنتباه لكل ما صَفَّ تحت يديه. عَدَّ نفسه مجنونا أو قادرًا بطلا. بينما عُدَّ من الأصحاء ذو صحة عجيبة و وعد بالقوة تعدى طوره. لا من يعدُ عليه ما عدا أطيار وعجائب السماء بين ريح ونسمات وبرودة وذرات مطر ، إنتقل هنا وذهب إلى هناك وعاد بأسباب خاصة مُصهَّر ما علا ودنى لكنَّه لا يزال كالزيت يعوم في الماء...

عاكس على ما لحقه وعكوف عقَّل وسدَّ.

سَيِّد في مَعقله و ما عِيَّل صبره وقد علا وطبَّب في دقة حاله. وأخيرا سَلِم من النوائب ومع بروز الميل البادئ و الإنخفاظ الظاهر للشمس في طبقة جَوِ دُنيا متحركة و على سبيل جِدة عرفته إستسلم لحمورة رفعت إليه الكآبة و إستشفت الوجود في الظلام في نيَّة إستشراق مرة أخرى تحمل الموت و الأوهام و المعاصي و ما حفا به المكان ، إستسرقت النفس المنحى، و لم تترك له ما إستركب إلاَّ ما علق معه منتهية .

تحمَّل وتعبٌ بمعاني حتى بَهت لونها و ظلَّمت مُبكرا و خصَّت بركن لا يعلم وقاره. وشكٍ إفتك عرضها بلا موسم أو إستحالة.

خرج عن المغارة و إحتجب بعيدا أين يَرى و لا يُرى وتَجلَّد حتى بان هدوء نفسه و إستحدث الوصَاية بالحيلة و إستحضر الأرواح و ما إستحصله من مُناجاة لعفاريت علَّها تستوضح له إستحاثات على الصبرلِما يحدث معه وقال في نفسه:

- تكبَّر عن الشكوك حتى لا تكنْ مُسْتهدفا؟
- لا تقلِّب عليا الأفلام لست بحاجة!
- تنجيك كلماتك أمَّا فعلك فمهلكة؟

وإستحسن خطابه لنفسه و رأى من رأى ما إستحبه، و بحيلة إعترف بذنبه ومقاسه لخصومة حتى إستجلب حوله الإنتباه لمطر و برد يدفئه مِن أفكاره .

أخذ من المكان مقعدا و من السفح ميدان يرتع فيه نظره ، ومن البعد عقد لا نهاية و طرح ما به يكشف ما في ظلام الأماسي ، إستشهد قلبه و بعد نزوله للميدان وعيشه لعادة لا إعادة لها.

فتق الإحساس خيال لا يظهر له سابق، و نور تجنَّح الأطياف في نزوف يُعتمد إجبارا .

تكبرت الشكوك بِه و التضني حتى طال عمره على عمر الشكوك بعد حلول الإغلاق السماوي، ليأتي النجم براقا متتاليا. يَشد الأسباب من قلبه. و إستهلك أجزاءا تهادت إليه وقفز عن المُباغتة في ألوان الأفكار تُلبسه وشاحا رافق السواد وتحزَّن الحزن. و إستحال حوله لِما يراه وغرق فِما يرتبه له القدر.

وفجأة عصفت به الشبهات الأولى من لعنة وافدة و إبتدأت من بعيد عندما إتضحت السيارات على صدر الأرض تحث و تعجِّل ونزل الرجال متجهين إلى المغارة.

إلى أين؟ قال وحيد محدثا نفسه ، هل تريد مواجهتهم ؟

- قل لي أنتَ مِن أين تريدني أن أبدأ ؟

لا تنحدر في المتاهة، قد يقتلوك ويرموك ويدفنوك.

أنظر بل هناك آدمين يهدرون المكان يرد رأسه

أوصيك ...الإنسان أدنى من البهائم في الأفعال

وماذا تريد مني أن أرتكز مع أقوالك!

فرَد رأسه : البهيمة لا تملك إلاَّ الجَهَلة و المتهورين أمثالك !

شهادة تُكتب لك إذا مِت؟مخاطبا رأسه

أتقول الصواب؟

وهل هذا مجال للشرح و الشك؟

إنك صورة لأبيك و تأخذ كثيرًا عن أمك ؟

يالك من مُباغت و ابن من أنا إذا ؟ إبن أبي وأمي بالطبع

وطالت المباغتة و إقترب البعيد و النظرات تستنكر السيارات و القلب يستنكر الإلمام.

وهاهم بسفح الجبل أربعة أو ثلاثة لا يظهر عددهم للعين .

وفي روعة شرَّعت لها الحياة و مُتفرقٍ أدار وجهه لرحاب إستخرج عربات الأفكار التي غيَّرت الأصوات و إستحلت الأرض.

أيحزنك الأمر؟ قال لرأسه

بل بي ديدان تنهش أصابع قدمايا؟

أخسيس أنتَ إنّ الأقوام بأعباء تستوطن

وما تظنني أليس بي أعصاب.

بلى.

وماذا إذاً؟.

أريد تحطيم رأسي بحجارة حتى لا أسمعك و ألقى بك بأقرب سرداب و هناك تأكلك الوحوش .

اللهم أفرغ عليّا صبرا .

عبد الله ألا تملك سعة صدر ..أسكت لا أريد مشورتك

بل أنتَ مَن ضيّقت عليا أكثر ما أرى بنفسي

سيأتي التغيير الذي تتوسّمه وسكت

....

هنا وصل "وحيد" إلى المغارة فرأوه يدخل المغارة ، فنظر أحدهم إلى الآخر و تواترت به التعاليل و أحدث به إنحناء على النار و نقصت ما به من فراسة . لقد كان رقما معهم يريد البحث في أمرهم و ذهب بكل الصفات و ألوان التعصب حتى تَملَّك أقدامه وخطواته و هي تتحرك أمامه .

أمجنون أنتَ ؟قال أحدهم

ألا تراه يدخل المغارة ؟

ولكن وحيد لا يبالي بهم ، حتى سمع داخله يقول له أنادم أنتَ لماذا خرجت إذا ؟

و دخلتْ عيونه في أثره في مقدار ما يستنتج لِما يطلع به ... لم يترك ما يخاف الوصول إليه و لا أدنى تلبيس ولا مستجاب له .

وقال أحدهم لا بد وأنه الرجل الذي نبحث عنه ، هو الشخص الذي يسكن بالمغارة ، لقد وجدنا لوازمه ، فلِما لا نتحدث إليه الآن ؟

ليته يخرج و الآن ؟ يقصد وحيد

تفضّل و قدم له إقتراحك ؟أ تقول الحقيقة وما المعنى لِما يُخفيه لنا ؟..

لا أبيح لنفسي محضورًا بل هو حق و هم أتباع وغزاة . إذا لم يكن يحمل معه شيئا سأسير نحوه و ليكن ما يريده القدر .

إنّهم عساكر أشدّ ظلمة من الليل و أجساد متقصِّدة لا ضلالا في ذلك و النفس معهم في آخر الهوّية فلا تشتك في يقين ظاهر هم مقحمات الزمن وكل بشر يحمل زمرة ليست لكل الناس ووصْلهم الوحيد الإقتصاص البعض في كل أمر وفي كل حالة .

و وقف الكلام ليتفتح على أشده (و هو يسرع إلى صاحبه في عزور و شدّه مَن وجد أمامه ما سعى إليه) أقوياء وأشداء لا يهتمون

وهاهو دخان البركان المجهول يلقي رنات الحرقة على المكان .

إلتقوا و إرتقوا جميعهم إلى الداخل و تصعَّدوا الربوة في مُخيلة النور ونَحُوا منحا الإمتلاك .

لكن وحيد إمتلك أسرارًا و هَولاً تعصَّره و فتَق صبره ، وهو يخشى ظهره ، و أحاطته مسألة شدَّت درب صغار الأمور و كبارها .

و ساروا إلى المكان في خطى ثابتة و أخرى تتأرجح .

أأنت مُتيقن ؟قال الرجل لصديقه وهو لا يزال يتقدم نحو الجبل

ولن أتراجع ..

و لماذا تتراجع و قد ظهرت يقول الآخر

في حين قال وحيد لنفسه هل أنت تعب !

فردَّ بل مسكين مستكين ؟

قال الرجل لصديقه يا رفيقي حان الفراق !! يقول أحدهم إلى الآخر يريد المغادرة

أتريد إسكان الهمَّ بي . ، لن نقتله فحذاري الخطأ

و هل لمست الخوف أو الفعل مني لست مُتهورا .

بل حُمة الدم لا تنصرف عني كما أنني مستسهل للدمع .إنّها لفطرة إرتقت بي وهو يبتسم

رد الرجل إحتط و تمهَّل ؟ يقول الآخر لقد دنونا إلى ما خفا وظهر .
و في حرّية وُجِدوا بين ما إفتك الحزم و ترصَّد ثقتهم في شرف .
و إزدادت ثورة الحركة في إزدواجية خلعت عنه التفرَّد و النشاط بعد خمول .رمى عنه أساور الوهم رفع وحيد قضيب الحديد و تعهَّد قواه بالدفاع عن نفسه إلى آخر الأمر .
خالط الليل وجوده و تظلَّم الخلق وما حوله حتى خالفت النظرات أحداث قدماه .
تبكَّت و مضى إلى خانة ألفها .و ألمَّ بها فرسان الليل وقف على مبدءه حتى خالط الأجساد الواقفة .
و أخيرًا ظهرت ، قال أخدهم مخاطبا وحيد
تقدَّم نحوَّه الرجل الوافي مالك الدنيا متأبط النعيم بذخ وجهه و تطال حتى قدماه و أطلق الملافظة للسانه.
يرنوه البقيَّة كمن ينتظر منتهاه كمن أنهى أمره البارحة بالمقبرة لكنه في إستشعار بالدخيل و أشياء أخرى جدّت.
إقترب منه مرتلاً للضحكات و وقف أمامه في كامل طوله ..وقال :
أتنتقم لنفسك أم الإنهزام قذفك بالمكان . وقد قرأت لك أنَّ النجوم أبكتكَ . و السماء أدمعتك
فلجأت إلى الجبل يقول الرجل وإلى جانبه ثلاثة اَخرين
تأمَّله الشاب كثيرا و وعى خلع الحياء عن وجهه و أنّ كلمة العفو في الشفاه مفردة شاذة كما نشر الخبر بين الآخرين في وقتنا الحالي ، فوقفت الآلة و تخمرت النفوس في إنتقال الجديث إلى الشاب :
إنّه مأوايا و مباتي و إنّي لأظنُ يقينا بِعلمك بذلك أو ليست خلعا للحرمة و العفو وفيهما
بجزاء مخاطبا أحدهم وكان المتكلم على لسان البقية
إقترب منه وقال : بل لا إنابة في العقوبة و إنَّه لحماس حسن قدومك و إنَّك لخام المعدن و تبسمَّ ... وعنصر مِقدام ...
ردَّ وحيد : لست بحاجة لشهادة بل مكاني و أحضرهُ متى حلا لي ذلك . أو شئت .
أعزى اللسان العداوة بينهما و أغدقا في مراتب الإغراب و بين مقاومة و تحذِّر و سلب و إستفسار أغضب هذا وذاك و أغلَّ هذا على ذاك حتى غلفهم ما أغرب مرأ العين .

أمَّ أنتَ فلا مكان لك هنا ؟قال الرجل صاحب البدلة السوداء وربطة العنق

أمَا تقوله مِنْ قلبكْ ؟ رد وحيد

كلُّ شيء عندك بين يديك .فهذه المغارة لي أنا كذلك .

و في إستعارات و إغراقات و إستعمالات تركبَّت و أمالت شَاهدًا على ما قال لكنَّه غزير الجهل حتى غشى فضيحة مُبهمة .

غرق الرجل في الضحك و غلق ما منح من الكلام و أغمد الكيس في قبضة أصابع يمناه و أغمض على كل الشيء في الظلام .

ماذا بالكيس ؟ قال وحيد للرجل

لا يهمك ؟ رد الرجل .

و هل تقتحمن حياة الغير و تُنغص ما مِنْ شأن الآخرين و تقل لا غنى لك على الإستفزاز ...

و ماذا بعد ؟ قال الرجل

و خطف وحيد من الرجل الكيس في غفلة فأفاده بيمناه و لا يزال يقابله فغلط الرجل معه و غيَّبه بضربة على وجهه ، و أطلق ما بقلبه من سبٍ شق المسامع و سف مسمعي القريب .

وأرخى ضربة أخرى على وجه وحيد ضربة قوية على صدره حتى أسقطه أرضا فحاول الشاب النهوض لكنه لم يقوى وتلاحقت الضربات

تنافر الجميع و هاج الهائج و أغلق ملمح الحوار حدوده و أغمي على وحيد ، حتى أذعن لصوت الخسارة لا يعيد شيئا إلاّ أصوات إسقاط الضربات حتى إستسلم . و في فيض لركالات و شدّ على الرقبة و ضربات بشدة على الصدر و البطن آفاض إلى الأرض . كمن شهد له بالإستشهاد الأخير أينَ غاب عن أمره .

لحقت عليه الجماعة لكنه كان قد باع بمعرض باطل و أفنى في ليل أسير النفس و في إفترار سافرٍ لعدم الرضي أين كانت النجوم غريبة مجردة تطل على المقام .

ألام بكامل جسده و جبين يقطر دما . ولا مفتدي له وليس لديه إلاّ أفانين السكون . و إفتكته الأيدي بدون دعوة و في غفله . وإفترض شروط ينام عليها بعزوبة عن دنيا الحياة و إفترش التراب و حاجات فريسة حرب شر و أصباغ من الهروات و أفحش كلام من خصمه حتى نام

سجينًا في إفراط التحذير، و أفرزت شفاهه السوائل صفراء و حمراء و شيءٍ من غير لون و غاب وجهه في التراب المُندى فذاق طعم الوحل .

إفتقر إلى يد تدحضه ، و إلى مكان شغله ، و إلى أحد يكلِّمه فيفتضح نومه ، وظهرت صورة والديه الضائعين أمامه ، ووجه المرأة التي أحبته "ليلى" وأحبها و فقد فيها أشياءًا لن يجدها عند سواها أو ندَّها . و راح يهذي بإسمها و يكرَّره فأكثر ظنه أنَّه إلى جانبها .و رمته الذكرى عند ممشاها و عند و قوفها و هي تمسح شعره . وإلى تراويح إلى جانبها – و أقحم الصور بمداعباتها في حجره و هي تنام على ركبتيه فيدنو من أذنها اليمنى و يُفضي لها بوشوشة .

متى نكون إلى بعض ؟ .

فترد عليه في المنام .

قريبا .

فتفتقت شِفاهه بقبلة على خدها الوردي و في أماكن شغلته وإهتم لحُمورتها و تورد مَطلقُها .

ألا تخشى الوحدة .

بل أمقتها ...

و نحن أنا وأنتَ.

أجمل زوجين

ليس بعد قال وحيد مُكلما نفسه .

قرأت فاتحتكَ هذا الشهر: قالت في الحلم .

و بقي شهر قال :

نحن لبعض هذا زمن فات .

و تناولها بين ذراعيه و إستعملت أصابعها الرقيقة تلاطفه حتى إفتضح تعنُّتها فإندست في أماكن من صدره و على رقبته و خلا بها السِرّ في أفق يتفتح على الشمس و وسع ما يرتسم من أحلام في إفعام و لذة أقطرت سريرة النفس و تهاذت بإفشاء أفقدتها مُقاومتها و أفقدته الغفلة و التصوُّب فأفلس فيها و أفنى في أفولٍ للروح.

وتباينت النسمات ونسَّق الفجر سَعيه في هدوء وسعى وتقشعت السحابة عن خرائط السماء فهذا جزءها أبيض في لطخة تحللت وأجزمت الوحدة.

وفي الأفق إقحام مُصرف أقبل عليه وإقتاده إلى دنيا ذائبة في فقرات مؤلفة وعند هبات الريح تعدو أوان غاب توقفت مكانها وتكوّمت في إقتراب وإبتعاد يغطي أقطارًا وأقطارًا وكان لا يزال بمكانه وقد تحلل بالزمان .

وتعطل الإحساس الموهب، لا يجوز التجانس.

أقْترفت الجريمة وأقترح من بين المنتهين حتى أقترح للقدر، إقتسم الجبل المنفي فيه لكي يكون من نصيب الوحوش، هذا هو قرف الدنيا ، وأقترن وجوده بعدمه فتصرّف فيه التملّك وثبت موته قريبا فالغرباء لن يتركوه في شأنه .

* * * *

قعد الشاب الجحر يعيد على نفسه مَن إقتفه أثر. وإقتطع من الزمن زمن لا يدرك شيء وقد نسيته الدنيا مِن حوله .

وإقتطف حِصته مِن رسم الأيدي وفي قسوة في أقصى عوز وأدنى غايات الرحمة تمهَّل وحده ورضى قسمته وحلم بِموت من يسكنوا القصور..

مرت الأيام وإرتاح قليلا مِن وجعه لكن وفجأة فتح عيونه عليهم يسيرون نحو الجبل ولا يزال على غايته، كان ثلاثتهم يتقدمون في خطٍ وخطى دارجة إنَّهم بالضرورة إليه يسيرون، ودخلوا المغارة في شدّة وطاعة لقهر وقساوة و جفا أقسى من الحجر، أقرعت أحذيتهم الصخر وثبتت الوقار.

وفي جهد، أفرغوا عليه حدًا لا يحتمل من الضربات ببرودة وفعل أقرب ما أمكن من أفرض الأمل بعدم الوفاء.

وشكا جنبه التراب والألم ونهل لشدّه معنى لا يجوز للحيوان تأوّه، وتهرّب بعيدا وحصى حدود هوت إلى نزاح التدجل : دع عندك الخبث وانهض...قال أحدهم

ولا يزال يتأوه حتى تفتحت جفناه وعرف وجهه ما عرف المستيقظ بفراش بسط رجليه وإمتدت أمامه بطنه وقد كان محل قحط، وبقاع يشق الأنفس لا يعقل.

وقد حيا أخيرا:

نمتَ كثيرا... إنهض إليا هنا.

كانت الأصوات مُتفرقة وبرز عنها صوت تضخّم وأقنعه بقرب النغم، نبتت عيونه شيئا فشيئا ونكص على عاقبيه في ثقل لا يعرفه إلاّ مُثقل مرض وجروح وقرح وتعب.

ألم تتعزَّز بعد بشيء

إذا كررت نومك سيثبت موتك رُغما وواصل :

دع الزور وإسمع ما تلتقطه عيونك.

لا تعرقل سير العمل بهذا المكان (كانوا قد بدؤوا عملية الحفر به) وسنمنحك التعويض تعويضان إن شئت عن الضرب والمكان، مبلغ يكفلك ويعذرك على ما أنتَ فيه، لا تعتذر.

ولكن تعذَّر على وحيد الكلام كما تعزى فيه الحزن وتعرقل لسانه حروف الكلمات وما بان منه تعرى عن الشفتين.

تعددت به الهمسات والإشارات وأحصى القول لكن النفس عرَّجت إلى التبكم ، وتعذر بلوغ الصدى، وتعرض لعيونهم ، وتعرف إلى الثلاثة، ثلاثي كان معه وما نجم منهم وعنهم.

تعطلت به مجلبة الحديث وتعفن به الدم، إذ تلوّح وتعفرت خدوده في التراب وذقنه وتعقبت لحيته أتربة تعقَّل سعادتك تتعلق بك.

وقال آخر: تعلق الأمر بضالتك أنتَ وما تريد .

لكنه بدون تعليق.

وإنخفض إليه ضخم الجثة من علو، ظرفه كان له تعليل وتعلقت النفوس بأنباء ترتسم على الشفاه.

لكني... لكني..يقول وحيد

ماذا..يرد الرجل

كما... ترو.

بتعمّد أو مُتعمد.. ماذا تقول في تركك للمكان مقابل كيس ورق نقدي تأخذه في زواله وحريتك معه

أهي معاملة بعنف. !. قال وحيد

لا .. إذا أردتُ مقايضة.

أترك لي يوم أو يومين.

بل يتعيَّن عليك الرد الآن... العرض لا يُرفض.

بل لا يُقبل هكذا : رد وحيد

سكت الرجل ثم قال :غدا سيكون معك المبلغ إذا قبلت وإذا كان العكس فأنتَ حر.

تغيَّرت وجهتهم وأجسادهم وتقصدوا الخروج وتغالظت أصواتهم مَن أساء وأنقص مما حوله.

أشعلت نظرات ما أشغله، تعيس وأتعس التعساء، وتحسَّست يديه جروحه وأضرار ضرَّسته.

كثيف الصعاب، وتجاسرت عليه دون وسائطية ولا مُسكِّن . وتحرَّق وتسعَّر من إحتجت لواذعه باحتةً في سرِّه.

وبرق به تقدم الألم فحافظ على ثقته وأثر التعطيل يطول به :لماذا لا تذهب إلى الطبيب (قال لنفسه)عندي عقاقير تشفيني رادًا على نفسه

بالله عليك ووسِم مقامك هل الدواء أم العقاقير.

أتركني وشأني مخا طبا نفسه

سَتهُلك بهذا العَند يقول رأسه

ليت يسخى علينا القدر بذلك (ولايزال يتحدث لنفسه).

إن مات الجسد فالروح ستتعذَّب تقول نفسه

أليس خير لها مِنْ أن تغرق في الوحل.

توقف وإصبر.

تعلم كيف تزرع بي الكثير من التدابير.

إطرح المشاكل من نصِّ تخيلك تقول نفسه

طلعتْ بكَ مطالع المطامع.

ماذا تقصد؟

والعرض.

لا يزال عرضا؟.

وأولاه وآخره.

إذا كان لابد اَخذه ثم أرده.

أتريد التراجع؟

أفتقر لدينار وعندما يسخى عليا النغم أرفض .. متبسما ما حاجتك هذا هراء

ربما خديعة؟

هذا ما سأعالجه وأناوله للساني ثم يدي؟

يا لك من مُرابي مخارب.

أعوذ بالله.

إنّها أذيال العبودية.

إقلب القول ماذا تريد؟.

بل ماذا يريدون من المكان؟ محدثا نفسه .

بِسُمو مقامك إنه سفح جبل مهجور ولا أحدا يسكن بهذا الهجر .

وما وُجد وأخذ بالكيس.

لا تشعل حرب الشكوك والألسن بل هو ما لهم

بل أريد أن أشغل بالك.

المعنى .

إذا كان ولابدَّ... أريد مضاعفة المبلغ.

وهذا ما كنت أنويه وتركته للمفاجأة.

بك فرصة ، وإقحام ، وتهافت ، لا أفهمك.

لا تهتم سترى وتسمع عندما يحين المقام.

وصحتك أستعتصم الصمت.

بل أثأر.. وهذا ما تريده أنتَ كذلك

لا أدري..

وجِّه القول إلى نفسك، وستعرف حق الإحراز الحقيقي.

لا تتظلَّل فتطمس وتضيع في غَمْرٍ مُر.

بل التوق إلى الدنيا جرَّأني و ولَّاني الوفاء، ومسني الأمر و أذكرني بالموت. كثر شروده وإنتابته حركة بأصوات غريبة إشتمَّها مَن معه، وتشعَّر بِبرودة مسَّت عصبه ومزَّجته بغضب وأبرز سمات وأغراض أحدثت أسبابًا بنظره وسمعه وأمسكته في تفكير عقيم ، كثير

المشاكل وأدنى علاج يسببه تنقل نظره إلى الوادي الغارق، في غالب التراب ومن المكان تعود إليه صيحات الأربع أنفس الوافدة من المدينة .

إغتسل، وتذاكر وتلمست يمناه صدره، إستشعر بالإنشراح بعد خنوع وراحة بعد صداع.

في وحدة وإنعزال منطويا وفي سحر وبُعد ، يجاهد بنفسه ولها، يُخرج ما في نفسه فيُكوّن التأثير قاهرًا ويجرها إلى غرض ويرتخي بأفعاله وقد غمَّ عنه الرأي وتجعَّل يُصدِّق ما يُخْضعه له ظنُه، وإنسانه الداخلي الذي عاش معه يُكلِّمُه .

وبصوت مسموح ونفس في حقيقتها جسد لأحداث وحِوارات بنته وحالات تفرقت به وتحصَّلته.

يعرف الكثير ويقف على الصواب في طريق حياته وتخبط وتبسط وجلس إلى نواحيه بلا دليل أو ما يعكس مُراده يتودد لأفعاله ويقترب من كل بعيد.

وتنقل به قلبه إلى كل مُنقلب وأسفل وعلا كل هج وعلى همل ألقاه خاضعا إلى تصرف بلا تصور.

وبلا مطمح ولا سبق طمع، وبلا ثقل إلاَّ ما تحمل من ثقل إقترفته رُوحٌ عرَّفته بأمور كثيرة.

على ماذا العزم؟ ألقي ما بِداخلك، أم أنَّك تبتلي إيماني بك؟ ، هذا الحين تعرف أني لست مجرد مُوسْوس أو قاذف لهذيان.

صراخك يُكرهني ويزعج صمتي.

تريد الحقيقة:

سأقبل بالمبلغ وأنتهي ولا تلقى عليا تشريفات أو ما ترى من ظلم أو صور تتبع الإنسان الضعيف، أصبح فؤادي لا يتسِّع، حتى أصبحت أدهن جميع عضلاتي ليلاً لأنام، وأتخذ من المُسكرات علاجا لنومي.

فلا أمسك على الدعاء إلاَّ بعد إستنفاذ شدتي فأنام فارغا وقد بدَّدني وأتلفتني في منامي، أرى االناس يتخذون من العجلات ممشى ومن السيارات مبتغى ، ما يريدونه يجدونه وأنا مع نفسي وقد راودتني هبات الإنتقام وغلقت عليا هذا المثوى، وجنا عليا المقتص وتطرَّحت الفراش وتجبرت نفسي مع مداومت العقود.

نمت السواعق في أكُنِّه ، وتعذَّب ألم الدنيا، وإشتهى الرحمة ومع ما يحمل مِن نقود بجيبه صرفها في يومه.

وَحْده في ملكوت إستوقف وتكرَّر في طائفة أفكار شغفه صرفها إلى ما راوده، إنَّه الإنسان المناقض للمستقبل ولأيام نظرته بحسابات الكآبة، في حين يُرى بطبعه بما توارى به من شعور وتطرَّحه من دفء ، وإستوقفته درجات الإنسان المُتساهل الواضح على الغير واضح من إتقى وتبصَّر.

وصادف تصرفه قوله، وإن كان وهما أو وهمًا وتكذب وتزعَّج فإنه قاص إذ تلمس صدره وتمازج في عَفن غرّق أفكاره و غلبه ، وأكرهته الدنيا وقرَّر إذ إحتلته الوساوس وتلمسها، فلن يعدل عن ما يريد وهذا أقرب إلى حبل الوريد...

وتخرَّجت الشمس عن بطن السحاب في حِمى تَبلَّغت إرادتها ومَصدرها ، نار أصابت الدفء شاهدة على البطحاء، محقق الحرقة المخرجة للوجود ما إختزنته الأرض.

لم يخفي قدما عن الأرض إلاَّ مإتصل بالسلامة ومن الغور إلى حولٍ بيَّن له ما إستفسر في أمره، إنَّها الحياة بسحر تعالج النوام وبقُدرة متفوق ، تتبعه حالات غيَّرت الكثير من النسيان.

وما تحرى به أبطأ حتى نال ما فضَّل و إنقلب إليه الصوت وتصرَّف به دون صَفح أو سِلم.

وقف أربعتهم أمامه وهو بفتحة الجبل

ماذا قلت؟

وهل شرعت الطريق لنفسك لا يزال بيننا كلام يقول وحيد

وماذا تريد مني ، الإعتذار..

يقول الرجل وقد إنحرف إليه مُنحنيا وقد تجنبه آخر لم يحصي لهم عدد في عافية عرفت صِدق ما تصارع معه البارحة وألفَ ما بنفسه حتى ظهر أمامه. ودنى إليه أتحلم !!قال الرجل ؟

تمسَّح وحيد وجهه وقد تشكك الرؤية وأدرك الصَح من الضد وإسترق المعنى ورأى صاحب البدلة السوداء والسترة البيضاء مَنْ إحتكم إلى رقبة عنق أكرهته أمره بلون جلد الحيَّة، وقد إعترضت منامه ليلة البارحة.

وبنهرٍ ألقى مسامعه بالخبر المشار دون تصنُّعٍ لِما يترصده ، وتوجه إليه بما تكرم به دون مشورة وقال وحيد :

أتريدني خاوي القلب أم تخشى البُعدين وتُشهد جيبك على ما أرى، ولا تراه.

لا تُعقِّد أكثر، ولا تدنى فتدلى بالموصود.

لاحظ.. أصبتني بضربات، ورميتني بدون إجراءات ، وألقيتُ بلا محمى بجبل لا يبلغه إمرؤ وبدون حس وأتلفت وأصررت حتى وصلت إلى ماتريد وإني لأتجسم في المزيد ، وتريدني أن أكون طعامك فلن أكون إلاَّ جزء من صحتك... فهل بلغت غاية الكلام معك ؟

كلُّ هذا المقال ولِما، أتحسب أجرك على المكان يسهب المال عليك من السماء وهل يتوافق الغني والفقير... لا تدَعى وفرِّج المسد، تجربتك وتمنياك قد تلقيك في السد.

إبحث وتحرى عن المكان وسوف يعِّرجك ما تجنحته إلى الصح فطاقة المغارة التي تنام فيها لا تنتهي إلى ما تريده

تَصمَّت حتى تنظَّر خشية دوام الصمت، وغاب في كمال وبين هيبة ونغم، صحَّح معقود لسانه.

مئة ألف مليار دينار !! المبلغ بالدولار سيرفعك إلى السماء .

وتفتحت الشفاه وضاقت، أخبرته بحالة ما حمله الخبر وقالت عيونه أنَّها تعرفت على المبلغ، فرأوا فيه الإصرار وما أشار عليه الأمر، وتعالجت النظرات في خبرة وفائدة ، ورأى الرائي ما يحقق الفائدة ولاشيء يتحقق وراء نقاش عقيم، والمكان قد إسترق قلب ساكنه.

أشير لك إلى نقطة هامة بعدما نتكاتب لا عودة لك هنا، يقول الرجل

يردُ "وحيد" لا تقل لي أذهب إلى حيث تَشِر عليا.

بل أوجد لنفسك مكانًا بعيدًا عن نظري أو طريق سيري مِن هناك ؟

* * * *

وسارع نحوه العمر.. وحملته السنين وحَفت به، سكن النسيان قلبه وسكنت النقود جيوبه ودواعيه، أحرق كل عادة أو ألفة من الماضي ومُنَّ بالفصل على صدق ما عرفه، وأقر له من ورائه بما معه، أخبرت عنه الألسن كل لسان، وأشارت إليه كل النظرات وكفَّته الأحاديث وأوجد له مكان لكسب كلام المقاهي. أخبرته الطير بما كان وحملت له الريح ما كان في

الإمكان.. وبيَّن غرس الفهم ودافعه.. ومن إنسان في حيلة وتصرف إنفرادي لكسب يومه إلى سُلطة ومُؤهل إستهلك مسحور النفوس، نظر إليه الناس عكس الرجال.. وإعتبرت طريقه شرعا لِمَا تعظم له وحيا الفرق بينهم وبينه.

وإزداد ماله وإختلفت حالاته بين زمن وزمن أحب إلى نفسه تغيَّر السيارات وأوجد له مُتسع للعيش وقطعة أرض لا قدر لها بعد بنى بها حياته و إقتطع من الأرض فيلا لا يوجد مثلها في الأحلام وكل رائي يتمثلها لخطة يتحدث فيها لنفسه.

وإضطرته المسالك إلى تغيير إضطراري للطريق الواصل بين الطرق المكتظ ، طريق خاص منفرد إلى الفيلا، وتحسب لها المبلغ إذ تبعها بالتسوية كأجمل مكان وتسطَّحت نقاط أشغلت عجلات السيارة تخرج كل معوذات قلبه وكان يريد رجل يحسب له المقال ويوسع له المقام، وشوهد من مثير الصور المرموق بالرؤية الموثق بالأمانة رجل الأعمال لم يعرف له أمر، أو مَرد لثروته، مرآه مهم وحضوره يقلِّب إليه من أحبه وأبغضه البعض غيرأنَّه قُذف بالفريق الأول، يغدو أو يذهب على ما هوى عليه من أطياف التثنية وما يناط بالقلب لكنَّه صاحب أرضية وملكية كتَمت وأرضَت.

كان به الكثير إلاَّ أنه متروك لأحاسيس وعيون تَحوطه، وتواعده القدر وأحبَّه الحظ وتوصَّته الوالدة مَن تملك طيف السحاب ، وإنعكس ممشاه على الأرض وتخَّرج من جوف قصص المساكين ، في يومه، غير أنَّه توعَّد الغرام وطفح قلبه بمراَها وتضاعفت صورها على جدران قلبه وفي نفخ دمِّه. رمته في الخلاء وأغنى نفسه عن وجودها ، كانت هنا بالأمس، شعاع أخذه للراحة وتذكَّرته مساوئ البعد وقبح أفعال الزمن.

وكان منه أن شَغل نفسه بكل مَدعاة وشق له فعل في الأعمال وقرأ قصص الحب وتسمَّع أغاني تأخذ له الحق، يريد الإقصاء لتسلط الشيطان على إسم الحب.

وأبطأ في الإنشغال فلا يأخذ راحته بالنهار بل بالليل والشمس إنتهت إلى وسط ساعات دورانها، حتى لم يعرف له ما يريد، ولا هو بمُصارح لما يريده.

سار في طريق بعيد لا يعرف له رد، وأزاغ يمينا وكل جهة كأنَّه بين أصابع يد تخاطبه : أنتَ من نفسك قدمتُ إلى هنا لا ترد البال فلن يرد لك ماغاب وسبق.. ما به لم يحترس لشعوره بل صَاحبه وأقبل على الكثير من الدنيا ، به أزمة روحية أو ما إختلف به راجح القول، إنَّ الفرق

بين البارحة واليوم صُداع وحركة ومَكانة يَتميَّز ويُعرف بها، وغطاء الأرض وكومة الحجارة المرتفعة في قمة جبل تنَّهت للمسامع ، كان عليها عندما يهوى له في كل حين وتنهضت بالمكان نافورة ماء وخزَّان ليس للعين بديل عن مرآه، ولا بالقول وصْف مكرَّم أمره.

سَقت ولمَّت كل الجفاء وأوترت كل جرم في التربة بمياه أعدها الدهر وأسقطت جفاف التربة.

تسارق الزمن وتنَقل بين الأكف وحطَّ على كل مُعتق وعمَّر ما غمر الفراغ وسقى الناس الراحة على مدى العناء، ضخ الجوف الإسمرار وتطرَّح المرار وإستقت المدينة من بئر كان ينام عليه رجل. وتخلَّف فيما وهب أموال أنداف فعله.

فاز بحقائب الدولة وهوى من الفجر إلى المساء وإبتعد بأكياس لا تنفذ إلى إنسان إبن الدهر وإبن الطريق وخيَّال بدون حصان ، وحدَّدت له النيَّة الأقدار وتوسم وإبتسم وتصرَّع وإلتهم وتنقَّل وبنته المجاهيل... وحطته الأجيال إلى ما تأجَّل، وسقط عنه حُتات الأقدام وما نبذته الصحون وتعفَّته القطط والفئران.

تقسَّحت الأعمار وتفتحت على آمال تثير البغيةَّ في جواره، ونحلَّ مِما هلَّ عليه، وتلقته الشموس إذ لفظته الفجوع ، وتغطس في هذا من ذاك ، تعنَّت إلى تمرير أسقط عنه أوراق الحظ ،َّ وتحفظ قدره وعاش مَلقاه صُور من إنتقصت من الليل وأوان ليكتب ما يضيع فيه، سلم للخيال وقلب الذئب المغيب إلى حاضر أليف، أنمى ثروة لِما سقاها من أعمال.

وأخذ بكل من تمنَّعه ، وأكمل نقص الضعيف وجهل المتكبر من حرق قلوب الكثير، وأظهر جانبه المصبوغ الجلد وطرد عنه الصبح الصعب من أخذه في نوام.

رفيق لهذا وكثير الشدة في وجه هذا، عيون بطقوس وعلى الهامش أشواك وحطام النار المتخلق المتوارث كانت شخصية "وحيد" .

ونهض بشرى لأجيال المستضعفين، وحنا به الإحساس يخرج ما به من حب يفتح صناديق تلقي ما بها هو مبتغى الكثير وغنى المحتاج، لا يكتم ما يدعوه بل بَسام مُواتي الحق.

ولا يخذل من إنصرف إليه بل يطفح عليه حتى يسايره، هي حرية إتبعها وتقصَّد مواضيع لصيقة بأفكار وفكره جميل وثيق يشرف إعادة على تصحيح النظرة للفقير.

له خبرة في فك الشفرة وتمرير الأذواق فيستبق المُرُّ من الحلو.

ومُسكِّن للهم، رفيق لما لا رفقة له، وشاح لكل إمرأة كعب لقدماها أوأوثقها التعب.
مع كل مساء يجلس ليصحِّح، يسأل هلْ وفى بماله وحقَّق فرحة مَن لم يره؟ هل رفع البلاء وتوقف إلى الإيفاء، وتصيَّد ظالم يسقط في الفخ، اليوم يبحث لنفسه جوابا لها علَّه يبحث عن جواب أكثر عن ما لم يجده فِما فعل.
الوقت الطويل في واقع أمام الخيال، وفي وهم عديم القدرة على الإختيار، مشاهد لكل محاولاته، مرفوض هذا وجميل ما تقدم، حسن هذا ويعيد عن القدرة ما لم يقتدر.
قضى الوقت الطويل في إمساك وترك ، ووسوسة مرادفة للأقوال.

* * * *

وككُّل حين يجلس في برهة واسعة من قصره وعلى فقرة وإرتقاء في نعيم ربط بين الطبيعة وما كسب مِنْ صُور لا يراها إلا القلب وشروح أودعة بدعة الخالق في صروف إنصرفت عن ضيق بتكاليف مصدر مُشرِّع رفعت له الجمال لمعنى لا يحتمل بسط الوصف، وفي جلجلة الوجود وفي قلب الردهة رجٌ يبعث بالمقام إلى أعلى.
وفي لبِّ الإعصار ورؤى لا تنمحي، وفي عجاج فسيح للبصر وفوز تعصر الوحدانية له، رمته عيون من بعيد وضعف عليه الإمعان والرهبة الحاصلة و إنقلبت الصورة بتلفت رفعه إلى طلب أحدهم بجولة على مَدِّ الفناء والساحة المحيطة للفيلا نظرات لم تلم وقد علا السور وبدى السياج موقفا لايضيق ولا يسير للشك.
ولا أثار باقية.
رد له الحارس على السؤال.
رجَّح الشاب ظنه وجرى به مجرى دفق المزيَّة فتلقى رسائل تخفي الشمس وتقطع الطريق الواصل.
طريقة هذا الحارس تكاد تتكرر عليَّ.... يقول وحيد بلى هي صورة الشرطي الظالم ذاك يوم من الماضي أسلوبه ليس بالجديد بل مقاطع ترتبط بغي يقبع بصدره.
وسرَّ له فهمه بأنظار لا يراها إلاّ هو وبُعدٍ غير مرض قض هدوءه.. ووجه يبدو منه حشد الظلمة ونفوس تتلفت إليه ولا يراها.. يقف معه ويتجمع ما تخلع عن كلية أثقلته... وتوجه إلى حدسه لم أعرف الحب إلاَّمرة واحدة مع "ليلى" لكن القدر أخذها .

الحب وسيلة للألفة ومنبع من نور، ومن يراعي وِداد الآخر يُراعى وداده ، وإني إخترتها لشعور يثور ويستمد من فكري، لم أنسى فضلها عليا ولم أنتقصه من نفسي ، الحب فن لا يستطيعه إلاَّ من حمله وتكساه ووثب بقلبه، فهلا تشعَّرت بِمُرادي؟ .

وعاد إلى برهته وعلى أفرشة أخذت بالرؤية إلى ما لا تراه وتسمعه أعين الفقير، وإتصل بلا شيء وبكل شيء أتاه فِكره، وأحال دون حول إلى أي حل، وإكتفى بإلقاء الحال، ذابت ألوانه وأبشع غوص غير صدق محتبس الأهواء العاهرة فتق أربطته مغيَّب الشأن.

إذ يستهلكه أثير أصوات وتجاوزت الضجة وهرولة أعجزت ترتيب هذا وفضل هذا عن ذاك، وشزرٌ مناوئ لألفة ما وصل إليه حتى أتى عليه، وما كان بعيد وقف يحضنه ومنع الحركة عنه وأصيب في قوَّته وأحيل على الضعف.

طلع عليه من أضاع عليه عمره، وهوى، إنَّه الأمر المُر يتحقق في جِد.. ونشب الوقع في أنشوطة شاشية رأسه.

وبان الماورائي، ونظر إلى الرجل الذي أمامه ثانية ، ينظر إليا بإحتقار

هو الرجل الذي توسط بينه وبين دار البلدية مِن إبتذل الجود وسوى المعاملة.. يوقفه اليوم ويطالبه برأسه، لكنَّه لم يستسلم بل تصدى وتجادلا مطولا.... وكل الإصطلاحات والمصاحبات لم تمرر إليه الرجاء بل أصرَّ على ما أأتُمِر، حتى أحسَّ أنَّه موثق رباط البقرة يتطرَّح الأرض وهو يجر.

غاصت رقبته في فقد وإلتهمته الأيام وهام، الحين في إثر الزمن، وفي دوام قُلبَ ناحيته، صراخ على ما ألمَّ وهل الخديعة لها وقت أم إنها بلا حدود؟ ، وإمتد به الإغتراب والزوال في ثلاثية القدر، الإنسان والتاريخ والقدر وتيارات آمن بها، وهو مبتور كما لم يكن أو به ما لم يكن..... كثر به ما لم يُقل.. وحياة بعرضها يريد العبور، لا نوع يحمله لتعيين نهج العيش ولا من يبسم له وهو في النعش.

تقدم به التوهُّم ، وعدى متحتم وزحف يُهمل الردم.

إنتزع العظمة والمخالفة ولحَّن مسلك التغير ليواصل هواجسه في صِدام لم يتحصَّل فيها على مَا له.

نظرات ناحبة وأيام رطبة.. وسَعي مؤجل.. إشتهت الألسن لَحمه وأبطلة فعله... أخوك من عرفك لا لحاجة سوى لله هناك من رتَّبك ورقة لأقداره وتنافر مع أولى السحب، لا من رقَّ قلبه عليك ، وفي مضي الزمن رشقك بالنظرات وتخلفت قطرة تفرُّ إلى ما لا يوجد، الصديق ليس خارقة ولا إنسان لمظلمه بل حاضر مُتكرر مع عيون تشع بشرى ليس ما عليك من الوقت إلاَّما معي، لي معك ما يروي لك الأمل إذ كانت فيك عبرة وخَفٍ ثقل حفظ لك وعدًا بالحياة.

ليس مهم ما أتبناه بل سهل عليا حراسة النفس من ريح الأقدار وفي ذاتي كلمة البدء إزاء ما أحتكمه.

القوة مع الكسب الجدَّة بعد الهمل، وخلاف في أعلى سقفه وصُلحٌ . لكنني أحفظ ضغط نفسي، لا أريد مَلاك متحضِّر ولا آخر متحصِّر ولا إحساس مُتسارع يقفز بالفهم أونبذ وتراجع مع إتساع سرداب أدمع لغة الفهم، جمعت بثبور ما أستمتع به وتحسَّست كل ما لمست يدايا، حتى حبات مطر طعمها طيِّب ، وفي عادة سيئة وُجدْت بمكان ليس به أحد.

وانطوى "وحيد "في صعوبة حملت له هرمونات جديدة على وجهه وجسده ميزات من كِبر وتأثُّر من تقلبات غُبن وكسر ونقم وقليل من البسمة طار النوم وتاه عن عيونه إلى ما لا يُعرف كانت هذه حالة "وحيد" قبل أيامٍ ، ومضى يخفق بمقلوب الصورة وفي قلب الأحلام ثابت لا يتحرَّف، وإشتك فتقلب في فراشه وفي شِدَّ وضُعف إستيقظ عن ما احتواه هذا زمن وفي حركة قوَّته وصَوت عام ، دفعته ريح وعَثْمه إلى الفزِّ بشدَّة حتى قارب رأسه ركبتيها، وتشوفها أمامه تشد إليه النظر مُناطة به وفي ضعف إشتبكت نظراتهما وقال قلبه إسمَها:

ليلى هنا نزلت إليه من هواء عال إلى قاع بالٍ ، ونَظرت إليه ِببسمة جميلة كما هي ثابتة بلا تشويش... نظر إليها كثيرا وتشيَّغ لها..

إنتظرتك طويلا، وحفظتُ لك مَكانك في حافظة حياتي، وعدتِني بالمجيء واليوم جاء الوعد، وكأنَّ الأيام ثواني: قولي شيئا، كلامك شافي ، نَديَّة الجفون كما أنتِ..

مَدَت يداها فأغفى عليها وحَلى لها وضْعُه في صَدرها ومَدَّ يديه.. ونظر إليها.. وجدها تبتعد وتخرج عن الباب ثاب إليها لكنَّه ضاع في حركاته وغرق في أقداره وهنا وُلِد من جديد.